١- دمشق المحروسة في عهد الناصر لدين الله السلطان صلاح الدين الأيوبي(٥٧٠-٨٥٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م)

(الحلقة الأولى)

بقلم الدكتور: محمد سامي سلطان.

مؤلف واستاذ محاضرفي جامعة دمشق

samisultan7@gmail.com

موضوع هذا البحث يتكلم عن دمشق زمن صلاح الدين الأيوبي و هو مقسم إلى قسمين :

ملخص القسم الأول :

ابتدأ هذا القسم بعرض الأحوال السياسية لدمشق منذ مجيء الحملة الصليبية الأولى حيث كان الصراع بين الأخوين دقاق بن تتش صاحب دمشق و رضوان بن تتش صاحب حلب، و عندما تمَّ تسلَّم طغتكين الحكم بعد وفاة دقاق حمل على عاتقه الجهاد ضدَّ الفرنجة في بيت المقدس و اتصل مع الفاطميين في القاهرة، و أصبحت دمشق بعد وفاة طغتكين تدعى بالدولة البورية نسبة إلى ابنه بوري بن طغتكين لكن خلفائه تواطؤا مع الفرنجة في بيت المقدس و وقوا الصلح معهم، أثناء ذلك كان عماد الدين زنكي قد استطاع أن يوحد الموصل و حلب و يستولي على الرُّها و يقضي على إمارتها التي كانت سداً منيعاً أمام المسلمين، و حاول عماد الدين أن يستولي على دمشق لكنه أخفق على الرغم من أنه تزوج من أرملة بوري الخاتون صفوة الملك زمرد، و تدخل في الأزمة الداخلية للحكم في دمشق، و عندما توجهت الحملة الثانية للاستيلاء على دمشق استنجد معين الدين أنر بعماد الدين زنكي و استطاع الأول بمكره أن يوقع بين الملكين الفرنسي و الأماني من جهة و ملك بيت المقدس من جهةٍ أخرى فاضطروا أن يرحلوا خائبين و مهزومين إلى بيت المقدس، و بنفس الوقت استطاع معين الدين أنر إبعاد عماد الدين زنكي عن دمشق، و في آخر المطاف و بعد جهدٍ جهيد من ابنه نور الدين محمود استطاع أن يدخل إلى دمشق بترحيبٍ من أهلها، و بعد وفاة نور الدين محمود، دخل صلاح الدين دمشق قادماً من مصر، بعد ذلك نجح صلاح الدين بتوحيد بلاد الشام و مصر و الحجاز و انتصر من دمشق على الفرنجة في حطين و استرد بيت المقدس و مدن الساحل، ثمّ انتقلت إلى الأوضاع الاجتماعية من جميع جوانبها كالزواج و نتج عن التمازج الموجود في بلاد الشام بين الفرنجة و المسلمين و النصارى الشرقيين و تحدثت عن أخلاق الدمشقيين و ما اتصفوا من مكارم الأخلاق، و أيضاً عاداتهم

و تقاليدهم في المناسبات الدينية و ماهي أشهر أطعمتهم و ما ذخرت موائدهم في المناسبات و كذلك عاداتهم في الأفراح و الأتراح لجميع طوائفهم الدينية، و عن طبيعتهم الخلابة و ما اشتهرت من منتزهات عريقة كان الدمشقيون يرتادونها.

The topic of the research deals with Damascus during the time of Saladin Ayyubid and is divided into two sections:

the first section: where I begin with the political conditions of Damascus since the advent of the first crusade, where the conflict between the brothers Daqaq bin Titch leader of Damascus and Radwan bin Titch leader of Aleppo, and when the Tagtkin took over as governor after the The death of Daqaq, he carried on him to jihad against the Franks in Beit Al-Maqdis and contacted the Fatimids in Cairo, and Damascus became after the death of The Tagtkin called the Puri state after his son Puri bin Tagtkin, but his successors colluded with the Franks in Beit Al-Maqdis and reconciled with them, during which Imad Addin Zanki was able to unite Mosul and Aleppo and seize Ruhha and eliminate its emirate, which was an impregnable dam against Muslims, and Imad Addin tried to take Over Damascus, but he failed even though he married the widow of Puri Al-Khatoun, the elite king Emerald, and he intervened in the internal crisis of government in Damascus, and when the second campaign went to take Damascus over, Moin Addin appealed to Imad al-Din Zanki, and the first was able to embroil between the French and Amani kings on one hand and the king of Beit Al-Maqdis on the other hand, so they had to leave disappointed and defeated to Beit Al-Maqdis, and at the same time, Moin Addin was able to keep Imad Addin Zanki away from Damascus, and eventually, after a great effort from his son Nour Addin Mahmoud he was able to enter Damascus with the welcome of its people, and after the death of Nour Addin Mahmoud, Saladdin entered Damascus coming from Egypt, after that Saladdin succeeded in unifying the Levant, Egypt and Hijaz and triumphed from Damascus over the Franks In Hattin and recaptured Beit Al-Maqdis and the coastal cities, then I moved to the social conditions in all their aspects such as marriage, and what resulted from the mixing that exists in the Levant between the Franks, Muslims and Eastern Christians, and I talked about the morals of the Damascenes and the values and morals that characterized them, as well as their customs and traditions in religious events and their most famous food and what their tables have been on occasions, as well as their customs in weddings and events for all their religious communities, and about their picturesque nature and the famous ancient parks that Damascenes used to visit.

أ- الصراع على دمشق منذ بداية الحروب الصليبية و حتى دخول السلطان صلاح الدين الأيوبي المدينة :

تعرضت دمشق في بدايات القرن السادس للهجرة/مطلع القرن الثاني عشر الميلادي خلال الحملة الصليبية الأولى إلى أكثر من محاولة لاحتلالها من قبل الفرنجة، لكن بعض تلك المحاولات لم تكن أكثر من مناوشات ضعيفة فاشلة، و غير مجدية، و لم تحقق شيئاً مما كان يحلم به الفرنجة من تحويل هذه المدينة إلى مملكة أو إمارة لاتينية(١)،كانت دمشق آنذاك يحكمها دقاق بن تتش(٢) حيث كان في صراعٍ مع أخيه صاحب حلب رضوان بن تتش(٣) الذي حاول الأخير الاستيلاء مراراً على المدينة لكنه أخفق(٤)،و عندما سيطر الفرنجة على سواحل بلاد الشام و بيت المقدس، تحولت دمشق إلى قاعدة لتحريك المواجهة العسكرية ضد الفرنجة(٥)، فحملت دمشق على عاتقها صد التوسع الصليبي نحو الشرق الإسلامي.

بعد وفاة دقاق مسموماً سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م خطب أتابكه ظهير الدين طغتكين(٦) لولده الطفل و عمره سنة واحدة ثمَّ قطع خطبته و خطب لعمِّ الطفل و يدعى أرتاش بن تتش و عمره اثني عشر سنة غير أنه استقام الأمر لظهير الدين طغتكين(٧)،الذي حمل عاتقه عبء الجهاد ضدَّ الفرنجة في مملكة بيت المقدس حيث أرسل قواته إلى صور Tyre(٨) ملبياً طلب أهلها حمايتهم من غارات الفرنجة المتكررة على مناطقهم من ناحية، و عجز الخلافة الفاطمية عن مساعدتهم من ناحية أخرى، و عرض أهل صور على طغتكين مفاتيح المدينة مقابل حمايتهم، فذهب إليهم و تسلَّم البلد سنة ٥٠٦هـ/١١١٣م(٩)،و على الرغم من الخلاف المذهبي بين أتابكية دمشق السنية و الخلافة الفاطمية الشيعية غير أنهما تحالفتا في وجه الخطر الصليبي (١٠)، عندما تسلَّم هيو سانت أومر حكم طبرية من تانكرد وضع خطةً لتوسع إمارته في الجليل على حساب المسلمين و التمدد نحو الشمال الغربي باتجاه صور و الشمال الشرقي في إقليم السواد(١١)، فأراد أن يعزل المنطقة عن العالم الإسلامي من خلال تطويقها بالحصون، و الحصون التي بناها حصن علعال فوق بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية(١٢) ،فعندما علم طغتكين عن بناء الحصن انزعج و أرسل جيشاً في صفر ٤٩٩هـ/تشرين الأول ١١٠٥م و هزم هيو الذي أصيب بجرحٍ بالغ و توفي على أثره، فعيَّن الملك بلدوين الأول فارساً فرسياً يدعى جرفيه بوسوك أميراً على الجليل، و في رمضان ٥٠٢هـ/ أيار ١١٠٨م نصب طغتكين كميناً لقوةٍ يقودها جرفيه بوسوك في الجبال القريبة من طبرية فهزمه طغتكين بقواته و أخذ جرفيه بوسوك أسيراً مكبلاً بالسلاسل إلى دمشق، و أرسل طغتكين رسالة إلى الملك بلدوين الأول طالباً جلاء الفرنجة عن طبرية و عكا و حيفا مقابل إطلاق سراح جرفيه بوسوك، و عندما رفض الملك اللاتيني هذا العرض، قام طغتكين بضرب عنق جرفيه بوسوك(١٣).

كانت بدايات التوجه نحو المشروع الوحدوي الإسلامي عندما استنجد طغتكين بالأمير شرف الدين مودود صاحب الموصل الذي لبى ندائه و التي ألحقت قواتهما الهزيمة بالجيش الصليبي عند الأقحوانة (الصنبرة)(١٤) و كبدتهم خسائر فادحة في١٣ محرم ٥٠٧هـ/ ٢٠ حزيران ١١١٣م(١٥)، و لم تمض أسابيع حتى قتل مودود في الجامع الأموي بدمشق بيد أحد الباطنية، و ذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة(١٦)،و اتهمت المصادر طغتكين بالتآمر على ضيفه و تحريض ذلك الباطني على قتله(١٧)، و ربما لأن مودود أثار مخاوف طغتكين حول رغبه السلطان السلجوقي محمد في بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الفرنجة(١٨)، و لم ينفرد المؤرخون المسلمون بتوجيه أصابع الاتهام لطغتكين بل شاركم أيضاً المؤرخون الفرنجة كوليم الصوري(١٩).

عندما حاول الملك بلدوين الأول مهاجمة مصر و وافته المنية عند بحيرة المنزلة(٢٠)، تمَّ الاتصال بين الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي و صاحب دمشق طغتكين اللذين اتفقا على القيام بعملٍ مشترك ضدَّ الفرنجة و إيقاع مملكة بيت المقدس بين شقي رحى(٢١)، فأصبحت عسقلان مركزاً لتجمع القوات الفاطمية الشيعية و قوات دمشق السنية لمواجه

الفرنجة(٢٢)، و سلَّم الوزير الأفضل قيادة الجيش الإسلامي إلى طغتكين(٢٣)، و على الرغم من أن المواجهة لم تتم بين المسلمين و الفرنجة(٢٤) غير أن ذلك يدل على صحوة إسلامية تزعمها طغتكين في دمشق و الوزراء الفاطميون في القاهرة، في حين وجد الخلفاء الفاطميون في مسالمة الفرنجة خير وسيلة لاستعادة هيبتهم(٢٥).

طمع الملك اللاتيني بلدوين الثاني باحتلال دمشق فقرر القيام بحملة لمهاجمة الإمارة في ذي الحجة ٥١٩هـ/ كانون الثاني ١١٢٦م، فاتجه إلى حوران و منها إلى وادي النقرة فوادي مرج الصفر فوادي العجم، حتى وصل في منتصف ذي الحجة/ ٢٥ كانون الثاني ١١٢٦م إلى الأطراف الشمالية من وادي شرخوب، و دارت معركة بين الجيش الإسلامي بقيادة طغتكين و الجيش الفرنجي بقيادة الملك بلدوين الثاني عند تل شقحب، رجحت كفة المسلمون في البداية، لكن عندما انشغل المسلمون بنهب معسكرات الفرنجة الخالي من المدافعين دون حذر، انقض الفرنجة عليهم و هزموهم و طاردوهم حتى عقبة شحوا في منتصف الطريق المؤدي إلى دمشق، غير أن الملك بلدوين الثاني رأى أنه من الحكمة الوقوف و العودة إلى بيت المقدس بسبب ما لحق به من خسائر(٢٦).

توفي طغتكين في ٨ صفر ٥٢٢هـ/ ١٢ شباط ١١٢٨م و تولى الحكم ابنه تاج الملوك بوري، فعرفت أتابكية دمشق بالدولة البورية نسبة إليه(٢٧)، لكن المدينة كانت في حالة شديدة من الفوضى، بسبب ازياد نفوذ الباطنية الذين قويت شوكتهم و تضاعفت مضرتهم(٢٨)، فاستغل الملك بلدوين الثاني وفاة طغتكين و قرَّر مهاجمة دمشق، فأرسل قوة عسكرية إلى بانياس التي تسلَّمها من داعي الحشيشية الباطنية(٢٩) إسماعيل العجمي و شحنها بلدوين الثاني بالعساكر، و اتجه في ذي الحجة ٥٢٣هـ/ تشرين الثاني ١١٢٩م نحو دمشق و عسكر عند جسر الخشب الواقع جنوب غرب دمشق، و استعد تاج الملوك بوري للدفاع عن دمشق، حيث قضت إحدى فرقه العسكرية على قوة لاتينية بقيادة وليم بور، لكن الأمطار أعاقت العمليات العسكرية، فانسحب الملك بلدين بجيشه تاركاً الحصار خائباً إلى بانياس و منها إلى بيت المقدس(٣٠).

توفي تاج الملوك بوري بجراجٍ بلغية تعرض لها من خلال محاولة الحشيشية اغتياله في رجب ٥٢٦هـ/١١٣٢م(٣١)، و قد أوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك إسماعيل الذي اتصف بالطموح و الاندفاع الزائد(٣٢)، فاستطاع أن يسترد بانياس(٣٣) من الفرنجة سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م، و عندما اضطربت الأمور الداخلية في دمشق راسل عماد الدين زنكي(٣٤) في سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م يطلب منه الاسراع إلى دمشق ليسلمها له و إلا فسيسلمها للفرنجة، عندها وجد عماد الدين زنكي فرصةً لتوحيد بلاد الشام للوقوف بوجه الفرنجة، فتقدم من الموصل نحو دمشق، لكن الظروف السياسية تبدلت بمقتل شمس الملوك نتيجة مؤامرة حاكتها أمه الخاتون صفوة الملك زمرد في ربيع الأول ٥٢٩هـ/ كانون الثاني ١١٣٥م و خلفه أخوه شهاب الدين محمود، الذي التف الناس حوله، حاول عماد الدين زنكي التفاوض مع الحكام الجدد من أجل تسليم المدينة، لكن الدمشقيين رفضوا ، فحاصر المدينة في جمادى الأولى ٥٢٩هـ/١١٣٥م لكنه أخفق في ضمها و ذلك للمقاومة الشديدة للدمشقيين بقيادة معين الدين أنر(٣٥)، أحد مماليك طغتكين، فاضطر عماد الدين غلى عقد الصلح مع الدمشقيين و فك الحصار في الشهر التالي(٣٦)، و هكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضمِّ دمشق، و ظلَّت المدينة تمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام(٣٧).

اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع الدولة البورية في دمشق لكي يتفرغ للحرب ضدَّ الفرنجة عند حصن بارين(٣٨)، و بعد أن انتصر عليهم مستولياً على الحصن(٣٩)، و حاول الهجوم في سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م على ممتلكات دمشق ناقضاً الهدنة معها لكنه انسحب بسبب تهديد إمبراطور بيزنطة يوحنا كومنين لشمالي بلاد الشام(٤٠)، و في سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م هوجمت دمشق من فرنجة بيت المقدس من الجنوب من جهة، و عماد الدين زنكي من جهةٍ أخرى، كان الحاكم الفعلي للدولة

البورية في دمشق معين الدين أنر، و يتصف ببراعته في السياسة حيث حافظ على استقلال دمشق بواسطة التوازن بين عماد الدين زنكي و الفرنجة، فقد استعان بالفرنجة ضدَّ عماد الدين، و بعماد الدين و خلفائه ضدَّ الفرنجة، و نفس الوقت كان أنر وراء اغتيال شهاب الدين محمود على أيدي رجاله و تنصيب أخٍ له غير شقيق و هو جمال الدين محمد صاحب بعلبك، فقد فوض الأتابك جمال الدين لأنر أمور المدينة و أقطعه بعلبك، فازداد نفوذه و أضحى هو الحاكم الفعلي(٤١).

استخدم عماد الدين زنكي سياسة ماكرة، فتزوج من الخاتون صفوة الملك زمرد أرملة بوري و والدة شهاب الدين، مقابل تسلمه حمص(٤٢)، و أعطى أنر عدة حصون مثل بارين و اللكمة و الحصن الشرقي(٤٣)، حيث علمت زوجته في حلب بمقتل ابنها فطلبت من زوجها أخذ الثأر لابنها و السيطرة على دمشق(٤٤)، فزحف عماد الدين زنكي من الموصل نحو دمشق و فرض عليها الحصار بعد تعذر التفاهم مع حكامها، و في شعبان ٥٣٤هـ/ آذار ١١٤٠م توفي جمال الدين محمد، فاستغل عماد الدين زنكي النزاع بين الورثة و هاجم المدينة، فأسرع معين الدين أنر فعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق، فاضطر عماد الدين إلى التراجع قليلاً في ظلِّ مقاومة الدمشقيين لقواته، لكنه استمرَّ في حصارها مستغلاً تدهور الحالة الاقتصادية للمدينة(٤٥)، فاستجد أنر بالفرنجة بعد أن أرسل أسامة بن منقذ(٤٦) إلى الملك فولك الأنجوي لإنشاء تحالفٍ بينهما بوجه عماد الدين زنكي، فقد أدرك الفرنجة خطورته الرامية إلى تحقيق الوحدة الإسلامية بين بلاد الشام و شمالي العراق مما سيؤدي إلى طردهم و رميهم في البحر(٤٧)، فتعهد معين الدين أنر للملك فولك بدفع عشرين ألف دينار شهرياً طيلة مدة الحملة؛ هذا فضلاً عن مساعدة الفرنجة في الاستيلاء على بانياس و هكذا تمت الصفقة، و عقد التحالف بين البوريين في دمشق و الفرنجة في بيت المقدس(٤٨).

توجه الفرنجة لنجدة حليفهم معين الدين أنر، مما جعل من عماد الدين زنكي القيام بفكِّ الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكّي كماشة، و أسرع للتصدي للفرنجة قبل أن يقتربوا من دمشق، و عسكر في إقليم حوران في رمضان ٥٣٤هـ/ نيسان ١١٤٠م ينتظر وصولهم، لكن الملك فولك توقف قرب بحيرة طبرية، ما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق، لكنه ما لبث أن فكَّ الحصار عندما سمع بتقدم الفرنجة لنجدة حليفهم، و عاد إلى حمص، و نجح البوريون و الفرنجة باستيلاء على بانياس في شوال ٥٣٤هـ/ أيار ١١٤٠م التي سلَّمها أنر للمك فولك حسب الاتفاق المبرم بينهما، و تخلَّص بذلك أنر من خطر عماد الدين زنكي الأمر الذي أعاق جهود الأخير بتوحيد المسلمين في بلاد الشام(٤٩).

استطاع عماد الدين زنكي أن يحرز انتصاراً كبيراً عندما فتح مدينة الرُّها(٥٠) سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، لكنَّه استشهد عليد مملوكه يرنقش أثناء حصاره قلعة جعبر(٥١) في ٦ ربيع الآخر ٥٤١هـ/ ١٥ أيلول ١١٤٦م(٥٢)، فانقسمت إمارته بين ولديه، فحصل ابنه الأكبر سيف الدين غازي على القسم الشرقي و مقره مدينة الموصل، و حصل ابنه الأصغر نور الدين محمود على القسم الغربي و مقره مدينة حلب، و كانت أملاك الأخير تتاخم الدولة البورية في دمشق(٥٣)، و كانت سياسة نور الدين محمود تهدف لمحاربة الفرنجة فحاول استمالة البوريين في دمشق، و ترددت السفارات بين حلب و دمشق بغية تهدئة النفوس، و انتهى الأمر بعقد صلحٍ بين نور الدين محمود و معين الدين أنر في شوال ٤٥١هـ/ آذار ١١٤٧م، و ثبَّت هذا التقارب ما جرى من زواج نور الدين محمود من ابنة أنر(٥٤)، و على الرغم من ذلك كله بقي أنر على تحالفه مع الفرنجة و حسن علاقته معهم، و هدف من تقاربه لتلك القوتين المحافظة على توازن القوى في بلاد الشام في انتهاج سياسة الحياد، لكن تحالفه مع الفرنجة تزعزع نتيجة تعاونه مع نور الدين محمود بالتصدي للفرنجة في حوران(٥٥).

كان لسقوط الرُّها رد فعل غاضب في الغرب الأوروبي الكاثوليكي، لما للمدينة من أهمية دينية للنصارى بعد بيت المقدس، فحرض البابا يوجين الثالث ملوك أوروبا من أجل نجدة إخوتهم اللاتين الكاثوليك في المشرق، و ذلك عن طريق مساعدة

القديس برنارد(٥٦)، فاستجاب للنداء لويس السابع ملك فرنسا، و كونراد الثالث امبراطور ألمانيا، و لكن انعدمت الوحدة الحقيقية بين القوات اللاتينية، عندما سار الملكين منفصلين عن بعضهما، و ارتكبت الحملة خطأ فادحاً بعبورها الطرق البري عبر القسطنطينية، فقد كان عليها التوجه عبر البحر لتصل إلى سواحل بلاد الشام، فعندما سار الإمبراطور كونراد الثالث بجيشه عبر آسيا الصغرى، من نقية إلى بلاد الشام حيث أرشده الأدلاء البيزنطيين إلى الطريق الخطأ نحو الجبال، و فتك بجيشه السلاجقة قبل وصوله إلى بلاد الشام، فعاد كونراد الثالث إلى القسطنطينية و أبحر نحو عكا(٥٧) ثمَّ بيت المقدس، وصل الملك الفرنسي لويس السابع متأخراً و سلك الطريق الساحلي الطويل لكي لا يتعرض لهجوم السلاجقة، و على الرغم من ذلك مني بهزيمة ساحقة من قبل السلاجقة، فسلك الطريق البحري من أضاليا نحو أنطاكية، و منها توجه نحو بيت المقدس حيث استقبله ملكها بلدوين الثالث في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، و كان في انتظاره الإمبراطور الألماني كونراد الثالث(٥٨).

و في ٤ صفر ٥٤٣هـ/ ٢٤ حزيران ١١٤٨م عُقد اجتماعٌ في عكا ضمَّ كونراد الثالث و لويس السابع و الملك القاصر بلدوين الثالث و معه الأمراء الفرنجة و كبار رجال الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية، و بعد الكثير من التداول و النقاشات اعتمد المجتمعون بالاستيلاء على دمشق(٦٠)، زحفت جيوش الفرنجة الضخمة إلى دمشق التي وصلتها في ٤ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ ٢٤ تموز ١١٤٨م و عسكر الفرنجة بمنازل العساكر جنوب دمشق، و انتشروا في البساتين و الحدائق جنوباً عند الميدان الأخضر حيث الأشجار الكثيفة، و عندما قلَّ الماء ساروا نحو قرية المزة و احتلوها، حاول أنر التصدي لزحف الفرنجة لكنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء أسوار المدينة، فقام أهل دمشق في إقامة المتاريس في الشوارع استعداداً للقتال، و ناوشوا الفرنجة المحتمين بالأشجار حتى اضطروهم إلى تغير مواقعهم نحو شرق المدينة، أثناء ذلك استنجد أنر بسيف الدين غازي صاحب الموصل الذي لبى النداء فخرج على رأس جيشٍ و معه أخاه نور الدين محمود صاحب حلب، و نزلا في حمص، لكن سيف الدين غازي كان يعلم مزاج أنر المتقلب فاشترط أن يحصل على ضمانات منه خوفاً من غدره، فطلب منه تسليم دمشق إلى أحد نوابه ثمَّ يعدها له بعد رحيل الفرنجة، فكان هذا الشرط ثقيلاً على أنر، فاستخدمه ورقة ضغط على الفرنجة ليرغمهم على الرحيل، و دبَّ الخلاف بين الفرنجة المحليين و الفرنجة الوافدين حول الفوز بالغنيمة، فقد طمع فرنجة بيت المقدس بضمّ دمشق إلى مملكتهم، و عارضهما كلٌّ من لويس السابع و كونراد الثالث الطامعين بإنشاء إمارة صليبية لهما مركزها دمشق، فاستغل أنر هذا الخلاف و عمل على تعميقه، و بذل الرشاوي للفرنجة المحليين و وعدهم بدفع الجزية، واعداً إياهم إن انسحبوا فسوف يتراجع عن تحالفه مع الزنكيين، ففكَّ الفرنجة الحصار في ٩ ربيع الأول ٥٤٣هـ / ٢٨ تموز ١١٤٨م يجرون أذيال الهزيمة خائبين(٥٩) .

بعد وفاة معين الدين أنر اجتمع أعوانه في مجلس مجير الدين أبق(٦٠) و قرَّروا بأن يتولى الحكم بنفسه، الذي وقع بصراعٍ داخلي مع أحد أركان دولته و يدعى مؤيد الدولة المسيب بن على الصوفي المتطلع إلى استئثار الحكم في دمشق، فخشي نور الدين محمود أن تصبح دمشق لقمة سائغة بيد الفرنجة، فقرَّر التدخل، و عندما علم ملك الفرنجة بلدوين الثالث بتحرك نور الدين محمود خاف من وقوع دمشق بيده، فجدَّد الحلف مع مجير الدين أبق و عندما علم نور الدين محمود مدى خطورة الاتفاق بين دمشق و بيت المقدس التي تعيق محاولاته الوحدوية(٦١)، عزم على ضمِّ دمشق و قطع الطريق على الفرنجة، فاستغل سوء الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمدينة بسبب غارات الفرنجة المتكررة و عجز حكام دمشق بصدِّ غاراتهم، و الذي أثبت سوء نوايا حكام دمشق، هي رفض مجير الدين آبق بتقديم مساعدة عسكرية لنور الدين محمود للتصدي للقوة الفرنجية التي أغارت على حوران سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م(٦٢)، فتوجه نور الدين محمود إلى دمشق عن طريق بعلبك، و نزل

على النهر الأعوج في المكان المعروف بمرج يابوس(٦٣)، و أنزل بعض عساكره في يعفور إلى الجنوب الشرقي من دمشق، و برر برسالة لمجير الدين أبق أن سبب مجيئه هو سوء أوضاع أهل حوران من الفلاحين و انتهاب الفرنجة لأملاكهم، و على الرغم من ذلك قرَّر مجير الدين أبق الحرب ضدَّ نور الدين محمود، و أرسل يستنجد بالملك بلدوين الثالث لإنقاذ دمشق، فكتب نور الدين محمود يوبخ مجير الدين أبق و أعوانه لارتمائهم في أحضان الفرنجة، لكن كان ردهم قاسياً مصرِّين على التصدي لنور الدين محمود، لكن المساعدة الفرنجية لم تأت، فاضطر مجير الدين أبق أن يقدم تنازلات سياسية لنور الديم محمود فعرض عليه في محرم ٥٤٥هـ/ أيار ١١٥٠م أن يدخل في طاعته و يقيم له الخطبة بعد الخليفة العباسي و السلطان السلجوقي و يضرب السكة باسمه، مقابل أن يظلَّ في حكم دمشق، فاضطر نور الدين الانسحاب من دمشق عائداً إلى حلب(٦٤).

بعد انتهاء نور الدين محمود من تصفية إمارة الرُّها، التفت مجدداً نحو دمشق للقضاء على البيت البوري المتحالف مع الفرنجة، فزحف مرة أخرى نحو دمشق في محرم ٥٤٦هـ/ نيسان ١١٥١م و حاصرها، فدبّت الفوضى في أرجاء المدينة، وعمد حكام دمشق إلى إرسال جماعاتٍ من جندهم لتفسد الزرع المحيط ببلدهم لكي لا يستفيد نور الدين محمود منه ما أحدث تذمراً بين السكان، فارتفعت الأسعار، و انقطع الطريق من المارة و اضطربت الأمور، و عندما برر نور الدين محمود سبب مجيئه لكي يصلح أوضاع المسلمين و يحرر أسراهم، و يجاهد ضدَّ الفرنجة، طالباً من مجير الدين أبق المساعدة و المؤازرة، غير أن الأخير أصمَّ أذنيه رادَّ عليه ردَّاً جافاً، تقدم نور الدين محمود نحو أسوار دمشق لكنَّه لم يشن هجوماً على المدينة حقناً لدماء المسلمين، وبعد شهر انسحب نحو داريا بسبب سماعه أن قوةً لاتينية يقودها الملك بلدوين متجهة لتقطع عليه طريق دمشق، فأقام معسكره في ضواحي بلدة الزبداني التي استولى عليها، أما الملك بلدوين الثالث فقد وصل إلى دمشق في ٣ ربيع الأول ٥٤٦هـ/ ٢٠ حزيران ١١٥١م، و دخلها مع جنده بعد سماح مجير الدين أبق لهم بذلك، و اتفقا على الاستيلاء على بصرى لصرف نور الدين محمود عن دمشق، و في نفس الوقت استجار سرخاك صاحب بصرى بنور الدين محمود حيث قد أعلن الثورة على الحكم في دمشق، فأسرع الأخير لنجدته ما حال دون استيلاء الفرنجة عليها و خصوصاً أنهم كانوا وحدهم بعد أن نكص مجير الدين عن مشاركته بالمسير نحو بصرى، لكن سرخاك كان متصفاً بالتقلب، فمال إلى الفرنجة، فالمتس مجير الدين أبق المساعدة من نور الدين لإرغامه على الخضوع(٦٥).

و عندما عاد الفرنجة إلى بيت المقدس، زحف نور الدين محمود نحو دمشق لكنه توقف حقناً لدماء المسلمين، و مال الدمشقيون و نور الدين محمود إلى التفاهم و عقد اتفاقية بينهما في ربيع الآخر ٥٤٦هـ/ تموز ١١٥١م، و عاد نور الدين محمود إلى حلب، و عندما زاره مجير الدين أبق حلب استقبله بالترحاب، لكن في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م استولى الملك بلدوين الثالث على عسقلان(٦٦) التي تعد آخر مركز للنفوذ الفاطمي في جنوب بلاد الشام، فكان ردُّ الفعل قوياً لدى نور الدين محمود لسقوط عسقلان، فرأى أنه لا يبيل لتوحيد بلاد الشام إلا عبر الاستيلاء على دمشق و إنهاء الحكم البوري فيها، و قد استاء الدمشقيون من تعامل البوريين مع الفرنجة على حساب المسلمين، فلم يرغب نور الدين محمود أخذ دمشق بالقوة لأن حكامها يستنجدون بالفرنجة كلَّ ما حاول مهاجمتها، فاستخدم الأساليب السياسية كالاستغلال الفجوة بين الحكام و الشعب لتحريضهم على الثورة ضدَّ البيت البوري، و نفس الوقت تقرَّب من مجير الدين أبق مظهراً له المودة عن طريق إرسال الهدايا له، و كذلك أوقع بينه و بين كبار رجال دولته المعارضين لمشروعه بضمِّ دمشق إلى الجبهة اللاتينية، و كي يدفع الأهالي للثورة ضدَّ الحكم البوري فرض الحصار الاقتصادي على دمشق(٦٧).

نجحت خطة نور الدين محمود في تحقيق تلك الأهداف و وقع خلافٌ بين مجير الدين أبق و أعوانه كما ازدادت الفجوة بينه و بين السكان، مما أدَّى إلى زحف نور الدين محمود بجيشه إلى دمشق التي حاصرها في صفر ٥٤٩هـ/ نيسان ١١٥٤م غير أنه لم يشن هجوماً عليها حقناً لدماء المسلمين آملاً أن يدخلها من دون قتال، استنجد مجير الدين أبق بالملك بلدوين الثالث متعهداً له بمنح الأموال و قلعة بعلبك و بعض مناطق البقاع وفيرة الانتاج، لكن الملك اللاتيني أبطأ في نجدة دمشق، أثناء ذلك دخل نور الدين محمود المدينة، عن طريق أعوانه من حرسها و أهلها بعد مناوشات مع جيش مجير الدين أبق، الذي احتمى الأخير بالقلعة لكنه استسلم، فأبقى نور الدين محمود على حياته و أقطعه حمص و أعمالها، غير ظانه تقرَّر طرده بعد بضعة أسابيع للارتياب في تآمره، فالتجأ إلى بغداد و قضى بقية حياته فيها، و استقبل الدمشقيون نور الدين محمود بكلِّ مظاهر الفرح، فمنع جنوده من القيام بأعمال السلب و النهب، و أغرق أسواق المدينة بالمؤن، و ألغى المكوس المفروضة على الخضار و الغلال ما جعل من الدمشقيين أن أطمئنوا إلى حكمه، و بعد أن نظم أوضاع المدينة عيَّن عليها نجم الدين أيوب و غادرها عائداً إلى حلب(٦٨).

بعد ضمِّ نور الدين دمشق و توحيد بلاد الشام أصبح شغله الشاغل إيجاد وحدة كاملة و شاملة بين بلاد الشام و مصر، و كانت الخلافة الفاطمية تعيش أواخر أيامها في ظلِّ آخر خلفائها العاضد لدين الله(٦٩)، و كان الصراع قوياً بين شاور(٧٠) و ضرغام(٧١) حول الوزارة، فأرسل نور الدين محمود ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه(٧٢) و معه ابن أخيه صلاح الدين في السنوات ٥٥٩هـ/١١٦٤م، ٥٦٢هـ/١١٦٧م، ٥٦٣هـ/١١٦٨م، لكن الملك عمروي الأول الذي تسلم الحكم بعد وفاة أخية الملك بلدوين الثالث سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م ردَّ بثلاث حملات لاتينية لمنعه من دخول مصر حتى يتسنى له احتلالها، و مع ذلك تمكَّن أسد الدين شيركوه من دخول مصر و تولي وزارتها سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م(٧٣)، و بعد وفاة أسد الدين شيركوه أسرع الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله إلى تقليد صلاح الدين الوزارة الذي اتخذ لقب الملك الناصر(٧٤)، و عندما اشتد المرض في الخليفة الفاطمي، أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة و مصر بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، و أن يخطب للخليفة العباسي في بغداد المستضيء بأمر الله و تمت الخطبة باسم الأخير في يوم الجمعة ٧ محرم ٥٦٧هـ/ ١٠ أيلول ١١٧١م (٧٥)و بعد ثلاثة توفي الخليفة الفاطمي الذي بوفاته كانت نهاية دولة الخلافة الفاطمية، و عادت مصر تحت ظل الخلافة العباسية في بغداد بعد خروجها منها حوالي قرنين من الزمن(٧٦).

توفي نور الدين محمود بقلعة دمشق يوم الأربعاء ١١ شوال ٥٦٩هـ/ ١٥ أيار ١١٧٤م، فحمل صلاح الدين الأيوبي على عاتقه حمل راية الجهاد ضدَّ الفرنجة عن طريق الوحدة الإسلامية ثمَّ التحرير، و تولى الحكم من بعد نور الدين محمود ابنه الصالح إسماعيل(٧٧) و كان قاصراً و عمر أحد عشرة عاماً، و قد تنازع أمراء بلاد الشام على الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، و طغيان المصالح الخاصة للأمراء، و مما زاد من الانقسام بين مسلمي بلاد الشام هو تحالف أمراء دمشق مع الملك عموري الأول، فاستنكر صلاح الدين الأيوبي الصلح المبرم بين شمس الدين بن عبد الملك المعرف بابن المقدم(٧٨) و الملك اللاتيني عقب مهاجمة بانياس، و قبل تحرك صلاح الدين نحو بلاد الشام كتب إلى الأمراء الزنكيين في حلب و دمشق يعلمهم بأنه أحق بولاية الصالح إسماعيل، و يخبرهم بقدومه، غير أنهم ردوا عليه رداً سيئاً، و يبدو أن أمراء دمشق وجدوا أنفسهم في موقفٍ حرج، فقد خشوا أن يزحف مشتكين من حلب و يستولي على مدينتهم ، و كذلك قلقوا من زحف صلاح الدين نحوهم، فاستدعوا سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل ليسلموه مدينتهم، غير أنه تباطأ في الخروج خوفاً من المكيدة، فألح الدمشقيون على ابن المقدم أن يدعوا صلاح الدين، فاضطر تحت وطأة الظروف السياسية إلى الاستجابة، و كتب إليه يستدعيه إلى بلاد الشام(٧٩)، ثمَّ خرج صلاح الدين من القاهرة في صفر ٥٧٠هـ/ أيلول ١١٧٤م على رأس

جيشٍ يقدر بسبعمائة مقاتل، و رافقه سيف الدين طغتكين و تقي الدين عمر و عز الدين فروخشاه، و عهد بإدارة شؤون مصر أثناء غيابه، و وصل إلى دمشق في ٢٩ ربيع الآخر ٥٧٠هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١١٧٤م، فاستقبل استقبالاً طيباً، و فتح له ابن المقدم أبواب المدينة و سلَّمها له، لكن قلعة دمشق امتنعت و فيها جمال الدين ريحان فاستماله صلاح الدين بالمال، و تولى سيف الدين طغتكين القلعة، و يتضح أن سبب مجيء صلاح الدين إلى دمشق بحجة حماية الصالح إسماعيل من خطر الفرنجة و الأمراء الطامعين، و تحت هذا الستار أخذ ينفذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام فمصر، ليتمكَّن بعد ذلك في حركة الجهاد الإسلامي ضدَّ الفرنجة، و المسلمون أشدَّ ما يكونون تماسكاً و قوة(٧٩).

ب- الأوضاع الاجتماعية في دمشق في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي :

إن دراسة المجتمع الشامي في عصر الحروب الصليبية من أشد أنواع الدراسات تعقيداً، كما أنها من أكثرها طرافة(٨٠)، فقد كان المجتمع الشامي و خصوصاً في دمشق زمن صلاح الدين خليطاً من الأجناس و القوميات و اللغات و الأديان(٨١)، و من أهم هذه العناصر الإسلامية الأتراك و الأكراد و التركمان، و قد غدت ركناً أساسياً في مجتمع بلاد الشام إبان الحروب الصليبية(٨٢)، و قد اهتم الأيوبيون كغيرهم بشراء الرقيق الأبيض، و الاعتماد عليهم في تدعيم سلطانهم داخل البلاد، و حمايتهم من أخطار الدول المجاورة لهم، بحيث أصبحت كلُّ مجموعةٍ منهم تنسب لمن اشتراها و قام بتربيتها(٨٣)،و إلى جانب الأتراك و الأكراد و التركمان وجدت وسط المجتمع الإسلامي في بلاد الشام أقلياتٍ من عناصر أخرى إسلامية و غير إسلامية، مثل الديالمة و الكرج و الأرمن و الموارنة(٨٤).

و مما يلفت النظر في زمن الحروب الصليبية هو **الزواج** الذي جرى بين الفرنجة من الموارنة و الأرمن و السريان و الروم الملكيين الأرثوذكس و ممن تنصرن من الأسيرات من جهة، و زواج المسلمين من الأسيرات اللاتينيات أو من الفتيات اللواتي ولدن من زواج لاتيني بنساءٍ شرقيات من جهة(٨٥)، و قد امتدت محاولات الزواج بين كبار المسؤولين من المسلمين و الفرنجة، فقد روى ابن شداد عن رسالةٍ أرسلها الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد لصلاح الدين الأيوبي يعرض عليه تزويج أخته من الملك سيف الدين العادل(٨٧) شقيق صلاح الدين، لكن الزواج لم يتم لاعتراض البابا كليمنت الثالث(٨٦)، و هذا التمازج كان ظاهراً على سكان دمشق خصوصاً فيصعب إلحاق الدمشقيين لأجناسهم الأصلية لكثرة ما تقلب على هذه المدينة من الأحوال التاريخية، و انتشرت اللغة العربية لدى جميع سكان دمشق مما جعلهم يغارون على لغتهم و يجلونها و يعتبرونها، ما عدا اللغات الطقسية الدينية لدى اليهود كالعبرانية، و لدى النصارى كاليونانية و السريانية(٨٨).

اتصفت **أخلاق** الدمشقيين بالكرم و اللطف و الميول إلى السلامة و السكينة و التودد، و يحبون الانشراح و السرور، وصفهم نعمان قساطلي في كتابه الروضة الغناء في دمشق الفيحاء : <<الدماشقة قومٌ أمناء ذوو شهامة و ناموس و دعة و مؤانسة رقيقو الطباع حسنو المعاشرة سليمو النية و كرماء يحبون الغرباء و يكرمونهم و يميلون إلى السلام و يرغبون في البسط و الانشراح>>(٨٩)، وقد نهى رسول اللهρ بسب أهل الشام عن علي بن أبي طالب τ أن رسول الله ρ قال : (لا تسبوا أهل الشام، و لكن سبوا شرارهم، فإن فيهم الأبدال)(٩٠)، و لا يزال أهل دمشق ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة عن أبي هريرة τ أن رسول الله ρ قال : (لا تزال عصابةٌ من أمتي ظاهرين يقاتلون على أبواب دمشق و ما حولها، و على أبواب بيت المقدس و مالها، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة)(٩١)، و من الأسباب التي جبلت أهل دمشق بهذه الصفات الحميدة فهي كثرة خيراتها التي جعلت سكانها مكتفين غير مشتهين شيئاً، و كذلك قد أثرت صفات العروبة في أخلاق الدمشقيين كالكرم و الشهامة و حب الغريب، و اتسم الدمشقيون بالنظافة في ملابسهم و داخل بيوتهم و

أجسامهم، و ذلك لكثرة المياه و غزارتها و وصولها إلى كلِّ بيتٍ و محلٍّ في مدينتهم، فالمياه الواصل تلك مجانية لا ثمن لها(٩٢)ز

و تتميز دمشق و سائر بلاد الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي أن أهالها على اختلاف طوائفهم و مذاهبهم يعيشون مع بعضهم بالتودد و الإلفة و يطبقون سلوكهم على مبادئ السلام و الحب، و يتعاملون بالحسنى(٩٣)، و إن **العلاقات السلمية و الحضارية بين الفرنجة و المسلمين** قد انعكست إيجاباً على العلاقات بين المسلمين و النصارى في شتى أرجاء بلاد الشام، و يتعجب من هذه العلاقة ابن جبير فقد ذكر عن معاملة نصارى جبل لبنان للمسلمين قائلاً :<< و من العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت و أحسنوا إليهم، و يقولون : << هؤلاء ممن انقطع إلى اللهY فتجب مشاركتهم>>>(٩٤)، و أكد جاك دي فيتري عن تلك العلاقة التي اتسمت بها بلاد الشام بين المسلمين و النصارى و اتهام النصارى الشرقين في بلاد الشام بالهرطقة ذاكراً بأنه <<هناك بين المسلمين كثيرٌ من النصارى و هم منسجمين مع المسلمين، و يخضعون لقانونهم مثل خضوع المسلمين أنفسهم، و صحيحٌ أن هؤلاء لم يأخذوا بالشريعة المثيرة لمحمد(ρ) إنهم مع ذلك فسدوا بشكلٍ بائس بالهرطقات>>(٩٥)،و يفتخر محمد كرد علي عن هذه السمة التي تميز بها سكان بلاد الشام قاطبةً عبر العصور في محاضرة ألقاها و فيها : <<نحن في الشام أمةٌ واحدة مهما حاول المحاولون أن يجعلوا بيننا فروقاً، و المذاهب ما كانت و لن تكون معياراً في هذا الباب، الماروني و الكاثوليكي و الأرثوذكسي و الإنجيلي و العلوي و الإسماعيلي و العبري و غيرهم تربطنا بهم رابطة أجمع من كلِّ الروابط، رابطة المصلحة الواحدة و الوطن المشترك، و قرابة الجنس و أواصر اللغة>>(٩٦).

و قد أشار ابن جبير إلى بعض **عادات الدمشقيين** التي كانوا يتمسكون بها في ذلك العصر، منها أن <<صفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفعٍ و خفض، و بسطٍ و قبض>>(٩٧)، كذلك تعجب ابن جبير من أن الصغير و الكبير منهم <<يمشون و أيديهم إلى الخلف قابضين بالواحدة إلى الأخرى، و يركعون للسلام في تلك الحالة>>(٩٨).

بقيت **أحياء دمشق** في عهد صلاح الدين الأيوبي مقسمة على الطوائف، حيث تركز النصارى في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، و تركز اليهود في المنطقة الجنوبية، و المسلمين و منشآتهم قرب المسجد الجامع و القلعة(٩٩)، و هذا لا يعني إن سكنت كلُّ طائفةٍ بمحلَّة لوحدها منفردة عن الأخرى ناتجٌ عن كراهية و تنافر، فهو اتباع للتقاليد القديمة و ميل الإنسان بالفطرة بالسكن مع أهله و ذويه، فانحصرت دور العبادة لكلِّ طائفة في المحلَّة التي تقطنها(١٠٠)، و أغلب المسلمين في مدينة دمشق زمن صلاح الدين الأيوبي من أهل السنة و وجد بعض الشيعة فيه أيضاً، و أما النصارى فأكثرهم من الملكيين الأرثوذكس، و اليعاقبة الأرثوذكس و الموارنة، و أما اليهود فوجدت طائفتين منهم القرائين و السامريين و قد أحصى عددهم بنامين التطلي بثلاثة آلاف يهودي(١٠١).

اتصفت مدينة دمشق عبر العصور **بالأمان** لدرجة أن البضائع كانت تترك بلا حراسة و قد شهد على ذلك أحد الرحالة اللاتين الذين زاروا دمشق بعد الحروب الصليبية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي و يدعى لودولف فون سوخم ذكر << أن المدينة مكتظةٌ بالسكان كثيراً، و كذلك أن البضائع تترك بلا حراسة، فإنه لا يوجد إنسانٌ متقدم في السن يتذكر أن أي انسان قد قتل هناك، و نادراً جداُ أن جرت سرقة أي بضائع معروضة للبيع هناك>>(١٠٢)، فقد عاش الدمشقيون بجميع طوائفهم آمنين في ظلِّ حكم صلاح الدين الأيوبي عيشةً آمنة و هادئة.

نال **العلماء و الأدباء** مكانة لدى صلاح الدين الأيوبي الذي زخر مجلسه بهم و كان على رأس الحضور ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق(١٠٣)، و انتشرت في بيوت دمشق مؤدبي الصبيان حيث اعتاد الناس على إرسال أولادهم إليها فيتعلمون قراءة القرآن و أصول الدين و العقيدة و الأخلاق العامة(١٠٤)، و انتشرت مجالس الوعظ في المساجد و خاصة أيام الجمع و المواسم كشهر رمضان و عشر ذي الحجة(١٠٥)، و نالت **المرأة** حظاً وافراً في الحياة الاجتماعية، و شغلت دوراً كبيراً كأم و معلمة و مجاهدة، لدرجة أنهن وصلن لرتبة العلماء في البيوت و المساجد، و قد أفسح صلاح الدين للمرأة ميدان الكفاح و جعلها تشترك في غمار الحياة العامة، كالسيدة عصمة الدين خاتون(١٠٦) أرملة نور الدين محمود و زوجة صلاح الدين، كان لها الفضل في توجيهه و إرشاده(١٠٧)، و كذلك أخت صلاح الدين و تدعى ست الشام(١٠٨) صنعت الأشربة و الأدوية و المعاجين و العقاقير في كلّ سنة بألوف الدنانير و فرقتها على الجرحى و المرضى من المدنيين و العسكريين(١٠٩)، كما أن المثل الأعلى الذي ضربه صلاح الدين في البطولة و التضحية، دفع النساء إلى الصبر و التجلد عند نزول البلاء(١١٠).

أما **الأعياد الدينية** فقد كان لها طقوسها المميزة لدى الدمشقيين، كالاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف في المساجد و الأماكن الصوفية كالزوايا و الخانقاوات فينشدون بقراءة قصة المولد و توزيع الحلوى، و احتفل الدمشقيون بذكرى الإسراء و المعراج، و ليلة النصف من شعبان، حيث صنعوا أنواعاً خاصة من الحلوى الملونة، و إما شهر رمضان فله خاصية لدى الدمشقيين كإنارة المساجد و إحراق كمياتٍ كبيرة من الشمع، و يقوم المسحر بدورٍ كبير بإيقاظ الناس عندما يدور في أحيائهم قبل الفجر بساعات حاملاً بيده طبلة صغيرة يقرعها للإيقاظ(١١١)، و تنهمك النسوة طوال نهار الصيام في إعداد الطعام من أنواع المقالي و الشواء و غير ذلك من ألوان الأطعمة(١١٢)، و تغلق أماكن العبث اللهو احتراماً لهذا الشهر الكريم، و يتفرغ الناس لقراءة القرآن و صلاة التراويح(١١٣)، و غالى الدمشقيون في إعداد الموائد و الإفراط في المرطبات و الحلوى(١١٤)، و معظم ليالي الشهر تقضى في الصلاة و التهجد و الأذكار حتى يحين موعد الإمساك ،و هناك من يصلي التراويح بكل لية جزءاً كاملاً حتى يختتم في آخر الشهر(١١٥)،و تقام في ليالي العشر الأخير من رمضان الإحياء و خصوصاً ليلة السابع و العشرين و التي تسمى بليلة القدر ، و مع إطلالة عيد الفطر تفتح الحوانيت ليلاً و نهاراً و يشتري الناس اللحوم و الحبوب و الحلوى لإعداد طعام العيد و حلواه، و في صباح العيد يلبس الناس أحسن ثيابهم و يتوجهون للمصلى لصلاة العيد و بعد الفراغ من صلاة العيد يتوجهون لزيارة القبور، ثمَّ يعودون لبيوتهم لتناول الإفطار و القيام بالمعايدات بين الأهل و الجيران و الأصدقاء(١١٦)، و عندما يحين موسم الحج يقوم الدمشقيون بالخروج لتوديع قوافل الحجاج المغادرة نحو بيت الحرام في مكة المكرمة، و يصف ابن جبير عن عادة الدمشقيين الحسنة يوم عرفة ليلة عيد الأضحى قائلاً :<< و من عادة أهل دمشق و سائر تلك البلاد المستحسنة، المرجو لهم فيها من الله Y قبولٌ، أنهم في كلِّ سنةٍ يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم، إثر صلاة العصر، يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين ربهم التماساًص لبركة الساعة التي يقف وفد الله Y و حجيج بيته الحرام بعرفات، فلا يزالون واقفين متضرعين إلى اللهY، و بحجاج بيته الحرام متوسلِّين، إلى أن يسقط قرص الشمس و يقدَّروا نفر الحاج فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات و داعين الله Y في أن يوصلهم إليها و لا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك>>(١١٧)، و عن كلِّ ما ورد يقول ابن بطوطة قولاً مشابهاً لذلك :<<و من عادة أهل دمشق و سائر البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيقفون يصبحون المساجد، كبيت المقدس و جامع بني أمية و سواها، و يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم، داعين خاضعين خاشعين متلمسين البركة، و يتوخون الساعة التي يقف فيه وفد الله تعالى و حجاج بيته بعرفات، و لا يزالون في خضوعٍ و دعاء و ابتهال و توسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب

الشمس، فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها، و لا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه>>(١١٨)، أما تقاليد عيد الأضحى فهي مشابهة تماماً عيد الفطر، ما عدا أن الناس تقوم في هذا العيد بالقيام بالتضحية بالمواشي و توزيع لحومها، و عندما تعود قوافل الحجيج إلى دمشق يقوم الناس نساء و رجالاً بتعظيمهم و التبرك بهم حيث << يصافحونهم و يتمسحون بهن، و أخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، و أخرجوا إليهم الأطعمة، فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقيّن الحاج و يناولونهم الخبز، فإذا عضَّ الحاج فيه اختطفنه من أيديهم و تبادرن لأكله تبركاً بأكل الحاج له و دفعن عوضاً منه دراهم>>(١١٩)، و أما أعياد الطوائف الأخرى فيذكر القلقشندي أن لليهود خمسة أعياد رأس السنة(١٢٠) و عيد صوماريا(١٢١) و عيد المظلَّة(١٢٢) و عيد الفطير(١٢٣) و عيد الأسابيع(١٢٤)، و أما النصارى فقد تعددت أعيادهم فبعد المشاركة بقداديس الأعياد، يلتقي أفراد كلِّ أسرة في البيت حول بعض الأطباق من المأكولات و الحلويات الخاصة بالمناسبة، و من أهم أعيادهم : عيد البشارة(١٢٥) و عيد الشعانين(١٢٦) و عيد الفصح(١٢٧) و أحد العنصرة (١٢٨)و عيد الميلاد(١٢٩) و رأس السنة الميلادية(١٣٠) و عيد الغطاس(١٣١) و عيد التجلي(١٣٢) و عيد الصليب(١٣٣) و هناك أعياد تخص السيدة مريم العذراء و كذلك القديسين.

اهتم الدمشقيون **بطعامهم**، و كان المطبخ الدمشقي غنياً بأنواع الأطعمة، و كذلك صنع الألوان المتعددة من الحلويات، و قد ذكر لودولف فون سوخم احتشاد الناس في سوق الأطعمة الفاخرة و التي طبخت بعناية كبيرة<< و في السوق الذي تباع فيه الأطعمة، من الممكن رؤية أعظم حشدٍ من الناس يمكن رؤيتها اجتمع في مكانٍ واحد، و يكون ذلك كلَّ يوم، حيث تتوفر جميع أنواع الأطعمة التي يمكنك أن تتصور وجودها، و كثيرٌ منها قد جرى طبخه بشكلٍ فاخر، و هم يعتنون عنايةً كبيرة بهذه الأشياء، و يبيعون كلَّ شيءٍ بالوزن و الميزان، كما تباع هناك أنواعٌ عديدةٌ من الخبز>(١٣٤) ، و من صفة أهل دمشق أنهم يولمون الولائم الكثيرة بعضهم لبعض و لمن كان غريباً بينهم، و إذا كانت الوليمة لضيفٍ غريب دعوا إليها أصحابه و أصحابهم ليزداد سروراً و أنساً، و يقوم الداعون بترتيب موائد الطعام فيضعون صدراً من نحاسٍ أصفر، و يرتبون عليه صحاف الطعام الملونة بكلِّ ذوق، و في مكانٍ آخر يضعون الحلويات و الفواكه(١٣٥)، أما الملابس فقد تميز لباس السلطان عن الرعية، و كذلك الجند عن المدنيين(١٣٦)، فقد أطال الدمشقيون ثيابهم فالمحتشم منهم <<من يسحب ذيله على الأرض شبراً>>(١٣٧)، و أما النساء فلبسن قميصاً من قماشٍ رقيق و فوقه رداء اسمه الفوقانية، حيث أسرفن بصنع الأقمشة و توسيع أكمام الثياب(١٣٨)، و يضعن الملايات على رؤوسهن و هي ملونة تشبه الملايات المصرية(١٣٩).

اختلفت عادات الدمشقيين في **الخطبة و الأعراس** فلكلِّ طائفةٍ عادة، فلمسلمون لا تسمح نساؤهم بظهور على الرجال حتى و لو كانوا من أقاربهن ، فيجتمع بعض نساء الخاطب المتقدمات في السن للبحث عن عروسٍ تناسبه، و بعد إخبار الخاطب يرسل رجال العائلة ليخطبوها له من أهلها و بعد الاتفاق على المهر يكتب عقد الزواج في بيت اهلها حسب الشريعة الإسلامية، و يوم الزفاف تجهز العروس و يقام العرس مساء، حيث تكون الأعراس محصورة على النساء و غالباً تكون سبعة أيام، أما النصارى كالمسلمين لا تظهر نساؤهم على رجالهم، و تشابهوا أيضاً مع المسلمين في اختيار العروس، و يقوم الداعون بالدعوة قبل العرس بسبعة أيام، و يأتون بيت العريس يوم الأحد مساء و تعزف آلات الطرب حيث يذهب الناس ليأتون بالعروس و الشموع في أيدي الرجال و يستقبلهم أهل العروس أحسن استقبال، ثمَّ تغطى العروس بإزار و يذهبون بها إلى بيت العريس بالأغاني و التراتيل، و بعدها يقام الإكليل في الكنيسة لمباركة العروسين، و بعدها يقوم النساء بجلب العروس يقام حفل العرس بالرقص و الغناء، تقدم الأطعمة الفاخرة للمدعوين، أما عادة اليهود عندما يقصد الخاطب أن

يخطب فتاة يسأل أهلها عما لها من المال أو ما يريدون أن يهبوها فإن وافقه خطبها و إلا فلا، و يعطي عروسته غلامة الخطبة في الحديقة غالباً فهذا يعني أنهم غير مقيدين كالمسلمين و النصارى، لكن الاحتفالات ممزوجة عوائدها معهم(١٤٠).

و في **الأتراح** عندما يحلُّ المصاب في بيتٍ ينعى أهل المتوفى و أصحابه فيأتون و يلبسون ملابس سوداء أما النساء فيحللن شعورهنَّ و يأخذن في أنواع النحيب و بعضهنَّ يبالغن في ذلك حتى يتسببن ضرراً لذواتهنَّ و أقرب الناس إلى الميت يلبسون الأسود حزناً عليه مدَّة طويلة(١٤١)، و يروي ابن جبير مبالغة الدمشقيين في جنائزهم و مجالس التعازي متعجباً حيث يقول :<< و لأهل دمشق و غيرها من البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة، و ذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقرَّاءٍ يقرأون القرآن بأصواتٍ شجية، و تلاحين مبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجواً و حناناً، يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان، و جنائزهم يصلَّى عليها في الجامع قبالة المقصورة، فلا بدَّ لكلِّ جنازةٍ من الجامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة، و دخلوا إلى موضع الصلاة عليها، إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته، فإن الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، و ربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد، فيصلُّون أفراداً أفراداً، و يجلسون و أمامهم ربعات من القرآن يقرأونها، و نقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكلِّ واصلٍ للعزاء من محتشمي البلدة و أعيانهم و يحلُّونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكلِّ واحدٍ منهم بالإضافة إلى الدين، فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيبه، إلى مالا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة، و تتبعها، لاسيما في الفقهاء، بما شئت أيضاً من سيد علماء و جمال الأئمة و حجة الإسلام و فخر الشريعة و شرف الملَّة و مفتي الفريقين، إلى مالا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كلُّ واحدٍ منهم إلى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر، ثانياً عطفه و قَذَاله، فإذا استكملوا و فرغوا من القراءة و انتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحداً واحداً بحسب رتبهم في المعرفة فوعظ و ذكَّر و نبَّه على خُدع الدنيا و حذَّر و أنشد في المعنى ما حضر من الأشعار ثمَّ ختم بتعزية صاحب المصاب و الدعاء له و للمتوفى ثمَّ قعد، و تلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا و يتفرقوا، فربَّما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى>>(١٤٢)، و كذلك يروي ابن بطوطة عن جنائز الدمشقيين بما يشبه ما ورد لدى ابن جبير فيصف الوصف الدقيق قائلاً :<<و لهم أيضاً في اتباع الجنائز رتبةً عجيبة، و ذلك أنهم يمشون أمام الجنازة يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة ، و التلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقةً، و هم يصلون على الجنائز بالمسجد قبالة المقصورة، فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، و إن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد و أدخلوا الجنازة، و بعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن، بمقربة باب البريد فيجلسون و أمامهم ربعات القرآن، و يقرؤون فيها، و يرفعون أصواتهم بالنداء لكلِّ من يصل للعزاء من كبار البلدة و أعيانها، و يقولون : <<بسم الله فلان الدين>>، من كمال و جمال و شمس و بدر و غير ذلك، فإذا أتموا القراءة، قام المؤذنون فيقولون :<<افتكروا و اعتبروا! صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم>>، و يصفونه بصفاتٍ من الخير، ثمَّ يصلُّون عليه، و يذهبون به إلى مدفنه>>(١٤٣)، و من الإجراءات المتبعة لمراسم تحضير الميت يقام بغسله أناسٌ محترفون و للنساء المتوفيات مختصة أيضاً، و يكفن الميت بقماش خام و يحمل على نعش، و يصلى عليه في المسجد ثمَّ يذهب به إلى المقبرة للدفن فيها(١٤٤)، أما أتراح اليهود في دمشق فيقمون بتغسيل بالماء الفاتر، ثمَّ يدرجونه في ثوبٍ من الكتان، و يحملون النعش إلى الكنيس و بعد الصلاة عليه يحملونه إلى مدفنه و يوارونه التراب، و أما أتراح النصارى في دمشق فإذا توفي أحدهم يتربصون بدفنه مدَّة أربع و عشرون ساعة يضعونه في صندوقٍ ليحضر أقرباؤه و أصدقاؤه و يعون أمامه أكاليل الزهور و بعض الأيقونات و يحمل إلى الكنيسة و يصلى عليه، ثمَّ إلى المقبرة، و أمامه صفوف من الإكليروس من كهنة و

شماسة يرنمون بآتٍ من الأناجيل، و حينما يصلون إلى اللحد يضعه الحمالون ليوارى في لحده، و يصطف أهل المتوفى لتقبل التعازي و يمر المشيعون لتعزيتهم و في مقدمتهم رجال الكنيسة من مطارنة و قساوسة(١٤٥).

امتلكت بلاد الشام عامة و دمشق خاصة **طبيعة خلابة متميزة**، و قد استغل الدمشقيون جمال طبيعتهم أحسن استغلال، و تفاعلوا مع الجمال فاستعاروا رقة الطبع و الدماثة و الإحساس بالجمال و رقي الذوق، و لقد اعتاد أهل دمشق في مختلف المناسبات، و خاصة في الربيع و مطلع فصل الصيف الذهاب إلى مشاهدة الغوطة و منتزهاتها، و كذلك كانوا يقصدون القرى القريبة من دمشق كالزبداني و غيرها(١٤٦)، و تعددت المنتزهات و التي أوقفت على جميع الناس منها منتزه الجبة، و هي أرضٌ مربعة قدر فدانين، عليها سقائف تظلها من غير طين بين شجر الصفصاف و الجوز و الحور، و هي على جنب نهر بردى و به نواعير و حوانيت للجزارين و بها مسجد و مدرستان، و هناك منتزه قطيه، و هو عبارة عن مقصف على نهر بردى، أما ربوة دمشق فهي من المنتزهات العظيمة الشأن، و هي عبارة عن مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي و به صفة المحراب، و يقال أنه مهد عيسى υ، و ينذر له و بها جامع و خطبة، و مدارس، و عدَّة مساجد، و بها سويقتان بينهما نهر بردى و بها صيادو السمك(١٤٧)، و بالإضافة إلى المنتزهات العامة هناك منتزهات لأعيان دمشق و أغنيائها أنشأوا فيها قصورهم و منازلهم في مناطق عدَّة من الربوة و المرج الأخضر(١٤٨)، و كان سلاطين الزنكيين و الأيوبيين و الممالك و أبناؤهم يخرجون للعب بالصولجان و تتسابق الخيول فيها(١٤٩)، و أخيراً فمنتزهات دمشق كثيرة لا تعد، فتكثر البساتين و الروضات فدمشق جميعها منتزهات، و قد أعجب الرحالة اللاتيني لودولف فون سوخم ببساتين دمشق و مياهها و ما فيها من خيرات ، فشبه جريان نهرها فرفر ((بردى)) خلال دمشق بالشكل الفني<<حيث يدير ببراعة و إبداع كثيراً من الطواحين، و يوجد حول دمشق حدائق و بساتين لا نهاية لها، فيها تنمو النبتات و الأعشاب و الفواكه، و الورود، و الزهور، على مدار السنة، و هي ساحرةٌ بسبب غناء جميع أنواع الحمائم و الطيور، التي تغرد في أيام الشتاء، أكثر مما تغرد في أيام حرارة الصيف، و تحيط هذه البساتين و الحدائق بالمدينة إلى مسافة تقارب الميلين، و جميع البلاد حتى إلى مناطق نائية فيها وفرة عظيمة من الفواكه الطازجة، طوال أيام السنة، و بناء عليه يرددون في الشرق و يقولون بإجماع : <<دمشق هي رأس سورية>>>>(١٥٠).

القسم الثاني : يتبع في العدد القادم

هوامش ومصادر البحث

(الحلقة الأولى)

(١) قتيبة شهابي : صمود دمشق أمام الحملات الصليبية وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٨ ص١٠١.

(٢) **دقاق بن تتش : هو دقاق بن تتش بن ألب أرسلان أبو نصر المعروف بالملك شمس الملوك، ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه تاج الدولة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م على يد السلطان السلجوقي بركياروق قرب الرَّي، و كان دقاق آنذاك بحلب، فراسله خادم لأبيه اسمه ساوتكين نائب قلعة دمشق سراً ، فخرج دقاق إلى دمشق و أجليه ساوتكين في منصب أبيه، ثمَّ دبَّر هو و طغتكين على ساوتكين فقتل، و أقام دقاق بدمشق، و دخل في صراعٍ طوسل مع أخيه صاحب حلب رضوان بن تتش، حيث حاول الأخير حصار دمشق لكنه أخفق فرجه خائباً إلى حلب، مرض دقاق مرضاً طويلاً و توفي في ١٢ رمضان**

٤٩٧هـ/١١٠٤م مسموماً عن طريق أمه التي زينت له جارية فسمته في عنقود عنبٍ معلق في شجره، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم، و إن أمه ندمت على ذلك بعد فوات الآوان، و أومأت إلى الجارية أن لاتفعل، فأشارت إليها أن قد كان، و تهرى جوفه فمات، و دفن دقاق في خانقاه الطواويس/ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق دار الفكر بيروت ١٩٩٥جـ١٧ ص٣٠٤/ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تواريخ الأعيان دار الرسالة العلمية ط١ بيروت٢٠١٣ جـ١٩ ص٥٣٠-ص٥٣١/الصفدي : الوافي بالوفيات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بيروت ٢٠٠٩ جـ١٤ ص٢١

(٣) **<u>رضوان بن تتش :</u>هو رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بن سلجوق بن دقاق، أبو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م، و نشأ في دمشق في حجر أبيهبعد مقتل أبيه تسلَّم حلب من الوزير أبي القاسم بن بديع سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م و تولى جناح الدولة حسين زوج أمه تدبير ملكه، و دخل في صراعٍ طويل مع أخيه دقاق و أخفق بالاستيلاء على دمشق، و كان الملك رضوان بخيلاً شحيحاً يحب المال، و فرض المكوس و الضرائب على حلب، و حكم رضوا خلب مدَّ عشرين سنة، في ٢٨ جمادى الآخرة ٥٠٧هـ/ ١٠ كانون الأول ١١١٣م ، و كان قاسي القلب على المسلمين، و لا يخرج لمحاربة الفرنجة الذين يغيرون على حلب، و أنه رأى العبر في نفسه/** ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب تحقيق د.سهيل زكار دار الفكر بيروت د.ت جـ٨ ص٣٦٥٩-ص٣٦٦٧ / سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه جـ٢٠ ص٦٦-ص٦٨/الصفدي : المصدر نفسه جـ١٤ ص ١٢٩.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق مكتبة المتنبي د.ت ص١٢٣ / ابن الأثير : الكامل في التاريخ المكتبة العصرية ط١ بيروت ٢٠٠٨ جـ٨ص٢٦٨.

(٥) عصام شبارو : السلاطين في المشرق العربي (السلاجقة – الأيوبيون) دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٤ ص١١٦.

(٦) **<u>ظهير الدين طغتكين :</u>هو أبو منصور المعروف بأتابك، كان من رجال تاج الدولة تتش، تزوج بأم ابنه دقاق، و كان مع تتش لما ذهب إلى الرَّي لقتال ابن أخيه السلطان بركياروق و بعد مقتل تتش في المعركة، عاد طغتكين إلى دمشق، و أصبح أتابكاً لدقاق مدَّة حكمه دمشق، فلما مات دقاق استولى على دمشق، و كان شهماً مهيباً، مؤثراً لعمارة ولايته، شديداً على العيث و الفساد، وله صولاتُ كثيرة ضدَّ الفرنجة في بيت المقدس توفي في ٨ صفر ٥٢٢هـ/ ١٢ شباط ١١٢٨م و دفن عند المسجد الجديد قبلي المصلَّى/** ابن عساكر : المصدر نفسه جـ٢٥ ص٣/ الصفدي : المصدر نفسه جـ١٦ ص٤٥١-ص٤٥٢.

(٧) **كانت علاقة طغتكين بزوجته صفوة الملك أم دقاق جيدة إلى أبعد الحدود ، و قد عمد للتخلص من دقاق بدس السم له، و بعد شهرين من تسلم بكتاش بن تتش لم يطمئن الأخير لسلامة نفسه في دمشق و خاف من طغتكين و من زوجته الخاتون صفوة الملك، و قد قامن أمه بتخويفه منهما، و أوهمته أنهما يقدمان على قتله، فهرب أرتاش بعد شهرين من استلامه الملك إلى صاحب بصرى، و قد عاثا مدة من الزمن في منطقة حوران ثمَّ مضيا نحو مملكة بيت المقدس آملين بدعم الفرنجة لهما للاستيلاء على دمشق، لكنهما أخفقا، و توجها نحو مدينة الرحبة/** ابن الأثير : المصدر السابق جـ٨ ص٣٣٠ / سهيل زكار : الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية دار الفكر دمشق ١٩٩٥ جـ٣ ص٢٦٦-ص٢٦٧/ أحمد أوتاني : دمشق في العصر الأيوبي دار التكوين ط١ دمشق ٢٠٠٧ ص٤٢.

(٨) **<u>صور :</u> مدينة مشهورة سكنها خلقُ من الزهاد و العلماء، و كان من أهلها جماعةٌ من العلماء، كانت من ثغور المسلمين، و هي مشرفة على بحر الشام بينها و بين عكا ستة فراسخ/** ياقوت الحموي : معجم البلدان دار صادر بيروت د.ت جـ٣ ص٤٣٣.

(٩) ابن القلانسي : المصدر السابق ص١٨٢/ ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص٣٩٨/ سبط ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٢٠ ص٥٨/سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة ٢٠٠٥ جـ١ ص٢٥٣،ص٢٥٤.

(١٠) عصام شبارو : المرجع نفسه ص١١٦.

(١١) **إقليم السواد : قرب البلقاء و سمَّيت بذلك لسواد حجارتها/** ياقوت الحموي : المصدر نفسه جـ٣ ص٢٧٢.

(١١) **طبرية : بليدة مكلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية و هي في طرف جبل و جبل الطور مطلٌّ عليها، و هي من أعمال الأردن في طرف الغور،بينها و بين دمشق ثلاثة أيام، و كذلك بينها و بيت المقدس، و بين عكا يومان/** ياقوت الحموي : المصدر نفسه جـ٤ ص١٧.

(١٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص١٤٩ / ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص٣٤٨.

(١٤) **الصنبرة : موضعٌ بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه و بين طبرية ثلاثة أميال /** المصدر نفسه جـ٣ ص٤٢٥.

(١٥) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص٤٠٢.

(١٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص١٨٧–ص١٨٨.

(١٧) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص٤٠٣ / سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه جـ٢٠ ص٧٥

(١٨) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ١ ص٢٦١.

(١٩) وليم الصوري : تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ترجمة د.حسن حبشي الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢ جـ٢ ص٣٠٣.

(٢٠) وليم الصوري : المصدر نفسه جـ٢ ص٣٢٨–ص٣٣٠.

(٢١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ٨ ص٤٣١.

(٢٢) عصام شبارو : المرجع السابق ص١١٧.

(٢٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا دار الكتب العلمية ط١ بيروت ٢٠٠١ جـ٢ ص١٧٥–ص١٧٦.

(٢٤) **عندما علم الملك اللاتيني بلدوين الثاني بهذا التحالف و ما يشكله من خطر على مملكته، حاول إخراج طغتكين من هذا التحالف طالباً منه تحديد الهدنة، فطلب طغتكين ترك المناصفة التي بينهما من جبل عوف و الحنَّانة و الصلت و الغور، لكن الملك بلدوين الثاني عدَّ ذلك ثمناً باهظاً لم يوافق عليه، مما جعل من طغتكين القيام بالهجوم على الفرنجة في الجليل و طبرية، ثمَّ وجه إلى عسقلان، فأخبره قائد الجيش الفاطمي بأن لديه تعليمات <<بالوقوف عند رأيه و التصرف على ما يحكم به>>، أثناء ذلك استنجد الملك بلدوين الثاني بإمارتي أنطاكية و طرابلس، ثمَّ عسكر شمال عسقلان حيث تجمَّد الموقف العسكري مدَّة شهرين أو ثلاثة أشهر عاد كلٌ منهما من حيث أتى، و السبب ربما خشية كلٍّ منهما من الآخر/** ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص٤٣١ / وليم الصوري : المصدر نفسه جـ٢ص٢٤٣–ص٣٤٤.

(٢٥) عصام شبارو : المرجع نفسه ص١١٧.

(٢٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢١٢–ص٢١٤.

(٢٧) عصام شبارو : المرجع نفسه ص١١٧، ص١١٨.

(٢٨) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢١٩–ص٢٢٠/ سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه جـ١ ص٤٢٧.

(٢٩) **الحشيشية الباطنية :جاءت هذه التسمية إما لاستعمال هؤلاء الحشيش الذي تذخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها لصنع الأدوية، و إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدِّر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجهه لتنفيذ مهمةٍ ما، و هو الأرجح، و خلال فترة الحروب الصليبية أن جماعة الحشاشين استعملت الحشيش استثارةً للقتل، و احتقاراً للموت في سبيل أهدافهم السياسية، و من ثمَّ انتقل الاسم الحشاشون و هو أصل كلمة <<Assasin>> إلى لغات جنوبي أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبية لا صلة لها باللفظ العربي الأصلي، أما نعتهم بالباطنية لأنهم يقولون إن لكلِّ تنزيل تأويلاً، و قد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكلِّ أمور الحياة، كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بالملاحدة أو النزارية؛ لأنهم**

يعترفون بإمامة نزار بن المستنصر الفاطمي/ سهيل طقوش : تاريخ الزنج و القرمطة و الحشاشين دار النفائسط١ بيروت ٢٠١٤ ص٢٠٩.

(٣٠) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٢٤ص٢٢٦ / ابن الأثير : المصدر السابق جـ٩ ص١٥ / رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ترجمة د. السيد الباز العريني دار الثقافة١٩٩٧ جـ٢ ص٢٨٧-ص٢٨٨.

(٣١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٣٣.

(٣٢) سهيل طقوش : تاريخ الحروب الصليبية دار النفائس ط١ بيروت ٢٠١١ ص٢٧٢.

(٣٣) **بانياس :بلدة صغيرة قرب دمشق ة للصُبيبة قلعتها/** أبو الفداء : تقويم البلدان دار الطباعة السلطانية باريس ١٨٣٠ ص٣٤٩.

(٣٤) **عماد الدين زنكي :هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور صاحب الموصل عينه السلطان السلجوقي محمود مربياً لولديه ألب أرسلان و فروخ شاه فلقب بالأتابم أي الملم، و استطاع الاستيلا بعد مدة على حلب و تحرير الرُها من أيدي الفرنجة، لكنه استشهد على يد مملوكه يرنقش** في ٦ **ربيع الآخر ٥٤١هـ/ ١٥ أيلول ١١٤٦م/** ابن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان دار صادر بيروت د.ت جـ٢ ص٣٢٧-ص٣٢٨.

(٣٥) **معين الدين أنر :كان مدبر دول أولاد أستاذه طغتكين بدمشق، كان عاقلاً خيراً حسن السيرة و الديانة موصوفاً بالرأي و الشجاعة محباً للعلماء و الصالحين كثير الصدقة و البر، و توجد مدرسة باسمه بقصر الثقفيين، و لقبره قبة بالعونية خلف دار البطيخ، توفي سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م/** الصفدي : المصدر السابق جـ٩ ص٤١٠.

(٣٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٤٨ / ابن الأثير : المصدر السابق جـ٩ ص٤٣،ص٤٤.

(٣٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ١ ص٤٥٥.

(٣٨) **حصن بارين : مدينة حسنة بين حلب و حماة من جهة الغرب/** ياقوت الحموي : المصدر السابق جـ١ ص٣٢١.

(٣٩) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٥٩.

(٤٠) سهيل طقوش : المرجع السابق ص٢٧٤.

(٤١) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٩ ص٧٧-ص٧٨.

(٤٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٦٦-ص٢٦٧.

(٤٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه جـ١ ص٤٧٣.

(٤٤) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب دار الكتب العلميةط١ بيروت ١٩٩٦ ص٣٢١. / سهيل زكار : المرجع السابق ص٢٧١ / أحمد أوتاني : المرجع السابق ص٤٥ / سهيل طقوش : المرجع نفسه ص٢٧٥.

(٤٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٧٠-ص٢٧٢ / ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٩ ص٧٨.

(٤٦) **أسامة بن منقذ : هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ولد بشيز و نشأ بها و أخرجه عمه أبو العساكر سلطان خوفاً منه على نفسه، غادر أسامة إلى دمشق ثمَّ إلى مصر و عاد ثانية إلى دمشق، و من بعدها استقر لسنواتٍ في حصن كيفا، دعاه صلاح الدين الأيوبي عن طريق ابنه مرهف للمجيء إلى دمشق التي استقر بها حتى وفاته، و كان أسامة أميراً و شاعراً و فارساً شجاعاً، و له العديد من المصنفات أشهرها <<كتاب الاعتبار>> توفي في دمشق في ٢٣ رمضان ٥٨٤هـ/٢١ تشرين الثاني ١١٨٨م/ابن العديم : بغية الطلب جـ٣ ص١٣٥٨-ص١٣٥٨.**

(٤٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه جـ١ ص ٤٧٥.

(٤٨) وليم الصوري : المصدر السابق جـ٣ ص١٧٥-ص١٧٦.

(٤٩) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٧٢/ ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ص٣٢١-ص٣٢٢ / وليم الصوري : المصدر السابق جـ٣ ص١٧٨-ص١٨٤/ سهيل طقوش : المرجع نفسه ص ٢٧٦.

(٥٠) **الرُّها :مدينة بالجزيرة بين الموصل و الشان بينهما ستة فراسخ ، و بها كنيسةٌ عظيمة ، و فيا أكثر من ثلاثمائة دير للنصارى/** ياقوت الحموي : المصدر السابق جـ٣ ص١٠٦/ أبو الفداء : المصدر السابق ص٢٧٧.

(٥١) **قلعة جعبر :قلعة مطلة على الفرات بين بالس ة الرقة قرب صفّين/** ياقوت الحموي : المصدر نفسه جـ٢ ص١٤٢.

(٥٢) للمزيد من التفاصيل حول سقوط الرُّها و استشهاد عماد الدين زنكي انظر : وليم الصوري : المصدر نفسه جـ٣ ص٢٣٦-ص٢٤٢ / مخيائيل السوري الكبير : تاريخ ميخائيل السوري الكبير دار ماردين للنشر ترجمة مطران الموصل للسريان الأرثوذكس مار غريغوريوس صليبا شمعون ط١ حلب ١٩٩٦ جـ٣ ص٢٣٣-ص٢٣٧ / الرُّهاوي المجهول : تاريخ الرُّهاوي المجهول ترجمة الأب ألبير أبونا مطبعة شفيق بغداد ١٩٨٦ جـ٢ ص١٤٥-ص١٥٣ / ابن العبري : تاريخ الزمان دار المشرق نقله إلى العربية الأب إسحق العربية بيروت ١٩٩١ ص١٥٦-ص١٥٩ / ابن القلانسي: المصدر نفسه ص٢٨٠-ص٢٨٥ / ابن الأثير : المصدر السابق جـ٩ ص٩٥-ص١٠٢/ سبط ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٢٠ ص٣٤٩-ص٣٦٧/ ابن العديم : المصدر نفسه ص٣٢٤-ص٣٢٧ / أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين دار الكتب العلمية ط١ بيروت ٢٠٠٢ جـ١٧٠-ص١٨٣.

(٥٣) عصام شبارو : المرجع السابق ص١٢٢.

(٥٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٨٨-ص٢٨٩.

(٥٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه جـ١ ص٤٨٩/ سهيل طقوش : المرجع نفسه ص٣١٠.

(٥٦) **القديس برنارد : ولد سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م من أسرة فرنسية عريقة في الحسب و النسب، فكان أبوه تيسلان من أشراف فرنسا، و كان صاحب فصر غونتان، أما والدته ألكسا فكانت تنتسب إلى أمراء برغونيا، غير أن أسرته اتصفت بالتقوى و عندما ولدته أمه نذرتع لخدمة الهياكل، و عند بلوغه سن العشرين عزم هو و أربعة من أخوته و خاله و بعض الناس على انتحال الرهبنة في دير سيتو للاتين الكاثوليك، على طريقة القديس بندكتس، و في حياته الرهبانية في دير سيتو خصص أوقات الفراغ ليملأ عقله و ذاكرته من آياتٍ و حكم و سير الكتاب المقدس، حتى حفظها و ألفها، ففاضت بها كتاباته و رسائله و تآليفه، و بعد سنتين من حياته الرهبانية اختاره رئيس ديره ليذهب إلى وادي كلرفو على ضفاف نهر الأوب لنشئ ديراً جديداً على طريقة سيتو، فأخذ معه أخوته و بعض الرهبان ليشاركوه في هذه المهمة الصعبة، و بعد أن أنهى برنارد بإنشأ الدير أصبح رئيساً للدير و أسقف أبرشية لانغر، و أضحى برنارد أعجوبة دهره بقداسته و عجائبه و كتاباته و دفاعه المجيد عن الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية، زار البابا إينوسنت الثالث دير كلرفو، و شاهد حياة العبادة و النسك فأعجب مما رأى، و قضى برنارد سنين طويلة في خدمة الباباوية و الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية، و عندما دعا البابا إيوجين الثالث ملوك أوروبا للقيام بحملة صليبية انتقاماً لسقوط الرُّها بأيدي المسلمين، اختار برنارد لهذه المهمة ، و قام بها بأكمل وجه، لكن عندما أخفقت الحملة قام أعدائه بإلقاء اللوم عليه فأصيب بكآبةٍ طيلة حياته، و عند بلوغ برنارد الثالثة و الستين كمن عمره انهارت قواه و ذبل جسمه من وفرة الأشغال و عناء الأسفار و إدمانه على الصوم و السهر، و توفي في ديره في يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ ٢٠ آب ١١٥٣م، و أعلنت الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية في يوم الجمعة ٦ جمادى الآخرة ٥٦٩هـ / ١٨ كانون الثاني ١١٧٤م /**ميخائيل عساف : السنكسار منشورات المكتبة البوليسية ٢٠٠٣ جـ٢ ص٦٦٢-ص٦٧٣.

(٥٧) **عكا :بلدٌ على ساحل بحر الشام من عمل الأردن، و في داخلها عينٌ تعرف بعين البقر و بها مسجداً ينسب إلى صالحυ/** ياقوت الحموي : المصدر السابق جـ٤ ص١٤٣/ أبو الفداء : المصدر السابق ص٢٤٣.

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن مسير الحملة الصليبية الثانية انظر : أتو أوف دويل : رحلة لويس السابع إلى الشرق ما تعلق في الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية تأليف و ترجمة و تحقيق د. سهيل زكار دار الفكر دمشق ١٩٩٥ جـ٧ ص٢٣-ص٩٠ / وليم الصوري : المصدر السابق جـ٣ ص٢٦٩-ص٢٩٤/ سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه جـ١ ص٤٩٣-ص٤٩٩/ سهيل طقوش : المرجع نفسه ص٣١٤- ص٣٢٣.

(٦٠) وليم الصوري : المصدر نفسه جـ٣ ص٣٠٥-ص٣٠٨.

(٥٩) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٩٨-ص٣٠٠/ابن الأثير : المصدر السابق جـ٩ ص١١٤-ص١١٥/ سبط ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٢٠ ص٣٨١-ص٣٨٣ / أبو شامة : المصدر السابق جـ١ ص٢٠٢-صص٢٠٩ / وليم الصوري : المصدر نفسه جـ٣ ص٣١٠-ص٣٢٠ / سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه جـ١ ص٤٩٩- ص٥٠٣/ سهيل طقوش : المرجع نفسه ص٣٢٣-ص٣٢٦.

(٦٠) **مجير الدين آبق : هو أبق بن محمد بن طغتكين،ولد ببعلبك و قدم دمشق مع أبيه محمد، فلما مات أبوه محمد ولي إمرة دمشق يوم الجمعة ٨ شعبان ٥٣٤هـ/٤ نيسان ١١٤٠م، كان أبق صغيراً تحت وصاية معين الدين أنر مملوك جد أبيه طغتكين، و الوزير الرئيس أبو الفوارس المسَّيب ابن الصوفي، فلمَّا توفي أنر انبسطت يد أنر قليلاً، و دبَّر أبق مع بعض بطانته مؤامرةً على الوزير أبي الفوارسس فأخرجه من دمشق إلى صرخد، ، و استوزر أخاه أبا البيان حيدرة بن علي، لفترةٍ وجيزة، ثمَّ استدعى عطاء بن حِفَاظ السُّلمي الخادم من بعلبك، و جعله مقدماً على العسكر، و قتل أبا البيان، ثمَّ قبض على عطاء و قتله، إلا أن أتى نور الدين محمود الزنكي و حاصر دمشق و استلمها بالأمان في يوم الأحد ١٠ صفر ٥٤٩هـ/ ٢ أيار١١٥٤م، فأعطى نور الدين حمص لأبق فأقام بها قليلاً، و انتقل إلى بالس على حد قول ابن العساكر و عند الصفدي إلى نابلس بإمرٍ من نور الدين محمود، فأقام مدةً بها، ثمَّ رحل إلى بغداد، فقبله الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، و أقطعه ما كفاه في بغداد، و دفن بداره عند النِّظامية، و عندما علم نور الدين بوفاته قعد له في العزاء وتوفي سنة٥٦٤هـ/١١٦٩م/**ابن عساكر : المصدر السابق جـ٧ ص٢٩٩/الصفدي : المصدر السابق جـ٦ ص١٨٨/ سبط ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٢٠ ص١٥١.

(٦١) وليم الصوري : المصدر السابق جـ٣ ص٣٦٠ / رنسيمان : المرجع السابق جـ٣ ص٥٤٨-ص٥٤٩.

(٦٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٠٨-ص٣٠٩.

(٦٣) **بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة و آثار عظيمة و قصورٌ على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا، بينها و بين دمشق ثلاثة أيام و قيل اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل/** ياقوت الحموي : المصدر السابق جـ١ ص٤٥٣.

(٦٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٠٩-ص٣١٠.

(٦٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣١٢-ص٣١٤/ رنسيمان : المرجع نفسه جـ٣ ص٥٤٢.

(٦٦) **عسقلان : هي مدينةٌ بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة و بيت جبرين و يقال لها عروس الشام و كذلك يقال لدمشق أيضاً/** ياقوت الحموي : المصدر نفسه جـ٤ ص١٢٢.

(٦٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٢٤-ص٣٢٦/ سهيل طقوش : المرجع نفسه ص٣٥١-ص٣٥٢.

(٦٨) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٢٦-ص٣٢٩/ ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٩ ص١٥٦-ص١٥٧.

(٦٩) **العاضد لدين الله : هو أبو محمد عبد الله بن يوسف الملقب بالعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ولد سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، تولى الخلافة بعد وفاة ابن عمه الفائز، و في عهده جرى الصراع بين شاور و ضرغام على الوزارة من جهة، و بين الملك اللاتيني عموري الأول و الزنكيين من جهة ثانية، و بعد انتصار أسد الدين شريكوه على شاور و قتله ولاه الوزارة و بعد وفاة الأخير، ولَّى العاضد صلاح الدين، و عند مرض العاضد قطع صلاح الدين الخطبة باسمه و و أمر بالخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله العباسي أثناء ذلك توفي العاضد يوم الأحد ١١ محرم ٥٦٧هـ/٢٠ أيلول ١١٧١م/**ابن خلكان : المصدر السابق جـ٣ ص١٠٩-ص١١٢.

(٧٠) **شاور : هو أبوشجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشاير السعدي الهوزاني، كان طلائع بن رُزِّيك قد ولاه الصعيد و ندم على ذلك، فتمكَّن شاور في الصعيد، و كان شجاعاً فارساً شهماً، فحشد قوةً عسكرية و اتجه نحو القاهرة و قتل طرلائع رُزِّيك و قلَّده الخليفة الفطمي العاضد لدين الله الوزارة، و دخل في صراعٍ مع ضرغام من أجل الوزارة، فغادر إلى الشام و استنجد بنور الدين محمود زنكي الذي أمدَّه بقوة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه و استطاع شاور أن يسترد منصبه ، لكنَّه أخلف وعده مع نور الدين بأن يقطعه ثلث خراج مصر، و استعان شاور بالفرنجة و تحالف مع ملكهم عموري الأول ، و أقام بلبيس حتى ملَّ الفرنجة من الحصار، و أثناء ذلك استطاع نور الدين محمود زنكي أن يهزم الفرنجة في حارم و يأسر أهم أمرائهم و قادتهم، و في آخر المطاف قتل شاور**

على يد عز الدين جرديك النوري، و يقال أن صلاح الدين هو من قتله سنة٥٦٤هـ/١١٦٩م/ ابن خلكان : المصدر السابق جـ٢ ص٤٣٩-٤٤٨/ الصفدي : المصدر السابق جـ١٦ ص٩٥-ص٩٧.

(٧١) **ضرغام : هو الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي المذري، هرب منه شاور إلى نور الدين مستجيراً به و مستنجداً، فسيَّر نور الدين معه معه أسد الدين شيركوه، و لما دخل شاور و أسد الدين شيركوه إلى مصر وجدا ضرغاماً قد قتل في يوم الجمعة ٢٨ جمادى الآخرة ٥٥٩هـ/ ٢٩ أيار ١١٦٤م عند قبر السيدة نفيسة، و طيف برأسه و بقيت جثته مرميَّة على الأرض إلى أن أكلتها الكلاب، ثمَّ بني على قبره قبة معروفة عند بركة الفيل بها القلندرية؛ و لكن يقال أن ضرغام لم يقتل إلا بعد دخول شاور و أسد الدين شيركوه القاهرة/** الصفدي : المصدر نفسه جـ١٦ ص٣٦٥-ص٣٦٦.

(٧٢) **أسد الدين شيركوه : هو أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان بن يعقوب، الملك المنصور أسد الدين، عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان من كبراء أمراء نور الدين محمود ، تولَّى دمشق مدَّة، و قام بمحاربة الفرنجة و انتصر عليهم مراراً و فتح حصونهم، و كان شجاعاً مقدماً صارماً مهيباً، أرسله نور الدين محمود ثلاث مرات إلى مصر، و بعد مقتل شاور ولاَّه الخليفة العاضد لدين الله الوزارة في مصر في يوم الأربعاء ١٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/٢٤ كانون الثاني ١١٦٩م أقام شهرين و خمسة أيام، توفي بسبب الخوانيق لمواظبته الشديدة على تناول اللحوم الغليظة و ذلك يوم الأحد ٢٣ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/٣٠ آذار ١١٦٩ملا بالقاهرة و دفن بها، ثمَّ نقل إلى المدينة المنورة بعد مدَّة حسب وصيته/**ابن العساكر : المصدر السابق جـ٢٣ ص ٢٨٤/ ابن خلكان : المصدر نفسه جـ٢ ص٤٧٩/ الصفدي : المصدر نفسه جـ١٦ ص٢١٤-ص٢١٦.

(٧٣) عصام شبارو : المرجع السابق ص١٢٩.

(٧٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ٩ ص٢٤٤-ص٢٤٥.

(٧٥) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٩ ص٢٥٩-ص٢٦١ / المقريزي :المصدر السابق جـ٢ ص٣٣٦-ص٣٤٠/ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة دار الكتب العلمية ط١ ١٩٩٢ جـ٦ ص٧,

(٧٦) عصام شبارو : المرجع نفسه ص١٣٦.

(٧٧) **الصالح إسماعيل :هو إسماعيل نور الدين محمود زنكي الملقب بالملك الصالح، توفي والده بعد أن ختنه يوم عيد الفطر بدمشق، و حلف أمراء دمشق للصالح، و حضر صلاح الدين من مصر ليكون مدبَّر دولة هذا الصبي فوقعت الفتنة المذهبية بين السنَّة و الشيعة في حلب فتوجة الصالح إسماعيل إلى حلب، و وصل صلاح الدين لإلى دمشق فأخذ حمص و حاصر حلب، فأرسل سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل و ابن عمِّ الملك الصالح إسماعيل نجدة له، فردَّ صلاح الدين إلى حماة و التقى الأخير بعزِّ الدين مسعود فتحاربا حتى هزم عزُّ الدين مسعود فردَّ صلاح الدين إلى حلب و أعطاه معرَّة النعمان و كفرطاب و بالارين، ثمَّ استولى صلاح الدين على منبج و عزاز ثمَّ حاصر حلب، فقاموه الحلبيون فلمَّا ملَّ صلاح الدين صالحهم، و أعطى أخت الصلح إسماعيل الطفلة عزاز بطلبٍ منها، مرض الصالح إسماعيل بالقولنج جمعتين و توفي في رجب ٥٧٧هـ/تشرين الثاني ١١٨١م و استمرَّ حكمه ثمان سنوات و بضع الشهور، و أقام الحلبيون النوح عليه و المآتم و فرشوا الرماد في الأسواق/** الصفدي : المصدر السابق جـ٩ ص٢٢١-ص٢٢٢.

(٧٨) **ابن المقدم : هو محمد بن عبد الملك الأمير شمس الدين من كبار أمراء الدولتين النورية و الصلاحية،سلَّم سنجار إلى نور الدين زنكي و سكن دمشق و لمَّا توفي نور الدين كان أحد من قام بالوصاية على ولد الصالح إسماعيل، ثمَّ أعطاه صلاح الدين بعلبك لكن ابن المقدم عصا عليه، فحاصره صلاح الدين ثمَّ أعطاه بعض القلاع عوضاً عنها ثمَّ استنابه على دمشق، و كان ابن المقدم بطلاً شجاعاً حضر معركة حطين ة فتح عكا و بيت المقدس و السواحل الشاميَّة، و توجه ابن المقدم إلى الحج فلما بلغ عرفات ضرب الكوسات و رفع علم صلاح الدين و كان أمير الركب العراقي طاشتكين فأنكر ذلك عليه و اقتتلوا فجاءه سهملٍ في عينه فخرَّ صريعاً، فحمله طاشتكين و خيط جراحه، لكنه توفي في اليوم التالي بمنى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م، وعندما علم صلاح الدين بوفاته بكى بكاءً**

شديداً، و له دارٌ كبيرة بدمشق إلى جانب المدرسة المقدّمية ثمَّ صارت لصاحب حماة ثمَّ صارت لقرا سنقر المنصوري، و له تربة و مسجد و خان بداخل باب الفراديس بدمشق/ الصفدي :المصدر نفسه جـ٤ ص٣٩.

(٧٩) ابن الأثير : المصدر السابق جـ٩ ص٢٨٨-ص٢٩٠ / ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق د. جمال الدين الشيَّال المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧جـ٢ ص١-ص٤-ص٧-ص١١ص١٧-ص٢١ / البنداري : سنا البرق الشامي تحقيق د. رمضان ششن دار الكتاب الجديد ط١ بيروت ١٩٧١ ص١٦٧-ص١٦٩-ص١٧٦-ص١٧٩.

(٨٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث و دراسات في تاريخ العصور الوسطى جامعة بيروت العربية ١٩٧٧ ص٢١.

(٨١) حسان حلاق : العلاقات الحضارية بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى دار النهضة العربية ط٢ بيروت ٢٠١٢ ص١٩١.

(٨٢) عصام شبارو : المرجع السابق ص١٢٦.

(٨٣) أحمد أوتاني : المرجع السابق ص٣١٥.

(٨٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص٤٨.

(٨٥) حسان حلاق : المرجع نفسه ص١٩٢.

(٨٦) ابن شداد : النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية تحقيق أحمد إيبش دار الأوائل ط١ دمشق ٢٠٠٣ ص٣٣٦-ص٣٣٨.

(٨٧) **<u>سيف الدين العادل :</u> هو محمد بن أيوب بن شادي الملقب بالملك العادلي سيف الدين أبو بكر ولد ببعلبك اختلف في سنة مولده، لكنه أصغر من أخيه صلاح الدين بسنتين، اشتهر بكنيته، و نشأ في خدمة نور الدين محمود زنكي له صولاتٌ مع أخيه صلاح الدين ضدَّ الفرنجة، و ملك من بلاد الكرج إلى همذان و بلاد الشام و الجزيرة و مصر و الجزيرة و اليمن، و اتصف بحسن التدبير ة الحلم و الصفح، يتصدق بأمواله و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، فقد طهَّر دولته من الخمر و المعاصي و المكوس و المظالم، و لمَّا قسَّم ملكه بين أولاده كان يصِّف بدمشق و يشتي بالقاهر، توفي في يوم الخميس ٧ جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ٦ أيلول ١٢١٨م في بعالقين قرب دمشق، فكتبوا إلى ابنه المعظم عيسى و كان بنابلس و أحضر جثة أبيه فصبَّره و جعله في محفَّة و نقله إلى قلعة دمشق من ثمَّ نقل إلى تربته و مدرسته المعروفة بدمشق/** الصفدي : المصدر السابق جـ٢ ص٢٣٥-ص٢٣٦

(٨٨) عبد الرحمن بك سامي : القول الحق في بيروت و دمشق دار الرائد العربي ١٩٨١ ص٦٣-ص٦٤.

(٨٩) نعمان قساطلي : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء دار طلاس ط٢ ٢٠٠٤ ص٢١٦.

(٩٠) ابن عساكر : المصدر السابق جـ١ ص٣٣٤-ص٣٣٥.

(٩١) ابن عساكر : المصدر نفسه جـ١ ص٢٥٤.

(٩٢) عبد الرحمن بك سامي : المرجع نفسه ص٦٦ – ص٦٨.

(٩٣) عبد الرحمن بك سامي : المرجع نفسه ص٧٣.

(٩٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير دار صادر بيروت د.ت ص٢٥٩.

(٩٥) جاك دي فيتري : تاريخ بيت المقدس ما تعلق في الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية تأليف و تحقيق و ترجمة د. سهيل زكار دار الفكر دمشق ١٩٩٨ جـ٣٣ ص٢٠٦.

(٩٦) محمد كرد علي : خطط الشام مكتبة النوري ط٣ ١٩٨٣ جـ١ ص٤٨.

(٩٧) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٦٨.

(٩٨) ابن جبير : المصدر نفسه ص٢٦٩.

(٩٩) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص٣٣.

(١٠٠) عبد الرحمن بك سامي : المرجع السابق ص٧٤.

(١٠١) بنيامين التطلي : رحلة بنيامين ترجمه عزار حداد المطبعة الشرقية ط١ بغداد ١٩٤٥ ص١١٧.

(١٠٢) لودولف فون سوخم : وصف الأرض المقدسة تعلق في الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية تأليف و تحقيق و ترجمة د. سهيل زكار دار الفكر دمشق ١٩٩٩ جـ٣٩ ص٣٨٣.

(١٠٣) أحمد أوتاني : المرجع السابق ص٣٢٠.

(١٠٤) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة نشره د. السيد الباز العريني مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر١٩٤٦ ص١٠٣-ص١٠٥/ ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة مطبعة دار الفنون كمبرج ١٩٣٧ ص١٧٠-ص١٧٣.

(١٠٥) أحمد أوتاني : المرجع نفسه ص٣٢١.

(١٠٦) **<u>عصمة الدين خاتون :</u> هي عصمة الدين بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين محمود زنكي ثمَّ تزوجها صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة زوجها، كانت من أعفَّ النساء و أكرمهن و أحزمهنَّ، و لها صدقاتُ كثيرة و برٌّ عظيم، بنت بدمشق مدرسة للأحناف في حجر الذهب عرفت بمدرسة خاتون و بنت للصوفية رباطاً على الشَّرف القبلي خارج باب النصر على نهر بانياس، و بنت تربة بقاسيون على نهر يزيد ، و أوقفت على هذه الأماكن أوقافاً كثيرة، في سنة٥٨١هـ/١١٨٥م، و عندما علم زوجها صلاح الدين بوفاتها كان مرشاً بحرَّان، فتأسف كثيراً و حزن عليها و تزايد مرضه، لأنه كان يأخذ برأيها/** سبط ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٢١ ص٣٠٨.

(١٠٧) أحمد أوتاني : المرجع نفسه ص ٣٢٦-ص٣٢٨.

(١٠٨) **<u>ست الشام خاتون زمرد :</u> هي ست الشام خاتون بنت أيوب بن شادي، أخت صلاح الدين و الملك العادل، سيدة الخواتين، كانت عاقلة، كثيرة البر و الصلات و الإحسان و الصدقات، كان بابها ملجأ للقاصدين، و مفزعاً للمكروبين، و هي أم حسام الدين لاجين، و تزوجها ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، و بنت لها مدرسة و تربة بالعونية على الشَّرف الشمالي من دمشق، ثمَّ أوقفت دارها قبيل وفاتها بدمشق مدرسةً، و أوقفت على التربة و المدرسة الجوانية أوقافاً كبيرة، توفيت سنة ٦١٦هـ/١٢٢٠م/** سبط ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٢٢ ص٢٤١/ الصفدي : المصدر السابق جـ١٥ ص١١٩-ص١٢٠.

(١٠٩) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه جـ٢٢ ص٢٤١ / النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٩٠ ص٢٠٩/) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع نفسه ص٣٠/ أحمد أوتاني : المرجع نفسه ص٣٢٨.

(١١٠) أحمد أوتاني : المرجع نفسه ص٣٢٨.

(١١١) أحمد أوتاني : المرجع نفسه ص٣٦٧-ص٣٦٨.

(١١٢) منير كيال : رمضان و تقاليده الدمشقية مطبعة دار الحياة دمشق د.ت ص٥٦.

(١١٣) منير كيال : المرجع نفسه ص٦١.

(١١٤) منير كيال : المرجع نفسه ص٩١.

(١١٥) منير كيال : المرجع نفسه ص١٠٤.

(١١٦) أحمد أوتاني : المرجع نفسه ص٣٦٨-ص٣٦٩.

(١١٧) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٦٤.

(١١٨) ابن بطوطة : تحفة النظَّار في غرائب الأمصار دار الكتب العلمية ط٥ بيروت٢٠١١ ص١٢٣-ص١٢٤.

(١١٩) ابن جبير : المصدر نفسه ص٢٥٩.

(١٢٠) **<u>عيد رأس السنة</u> :هو عيد رأس سنتهم و يسمُّونه عيد رأس هيشا أي عيد رأس الشهر، و هو أول يوم من شهر تشري و منزلته كعيد الأضحى عند المسلمين، لأنهم يعتبرون أن الله أمر إبراهيم υ بذبح ابنه إسماعيلυ و قد فداه بذبحٍ عظيم ((يعتبر اليهود و النصارى أن الذبيح هو إسحاقυ)))**القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا دار الكتب العلمية د.ت بيروت جـ٢ ص٤٦٣/ يوسف نعيسة : يهود دمشق دار المعرفة ط١ دمشق ١٩٨٨ ص٣٨.

(١٢١) **عيد صوماريا : هو عندهم الصوم العظيم، و يسمُّونه الكبور، و يقولون إن الله فرض عليهم صومه، و لم يصمه قتل عندهم، و يزعمون أن الله يغفر لهم ما خلا بالزناة بالمحصنة، و ظلم الرجل أخاه، و جحد ربوبية الله تعالى/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٦٣-ص٤٦٤.

(١٢٢) **عيد المظلَّة : و هو سبعة من شهر تشري و كلُّها أعيادلٌ عندهم، و اليوم الآخر منها يسمَّى عرايا أي شجر الخلاف، و هو أيضاً حجٌ عندهم، يجلسون تحت ظلالٍ من جريد النخيل و أغصان الزيتون و الخِلاف، حيث تذكرهم بإظلال آبائهم في التيه بالغمام/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٦٤.

(١٢٣) **عيد الفطير : و يسمُونه الفصح، و يكون في الخامس عشر من نيسان، و هو سبعة أيام أيضاً، يأكلون فيها الفطير، و ينظِّفون بيوتهم من خبز الخمير لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلَّص الله فيها بني إسرائيل من يد فرعون و أغرقه، فخرجوا إلى التيه، فجعلوا يأكلون اللحم و الخبز الفطير، و هم بذلك فرحون، و في أحد هذه الأيام غرق فرعون/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٦٤.

(١٢٤) **عيد الأسابيع : و يسمَّى عيد العنصرة و عيد الخطاب، و يكون بعد عيد الفطير بسبعة أيام، و اتخاذهم لهذا العيد في السادس من شهر سيوان و فيه خاطب الله بني إسرائيل من طور سيناء/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٦٤-ص٤٦٥.

(١٢٥) **عيد البشارة : و هو عيد بشارة السيدة مريم عليها السلام بميلاد عيسى υ و يكون ٢٥ من شهرآذار/** القلقشندي :المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٤.

(١٢٦) **عيد الشعانين :و هو سابع أحد من صومهم، حيث يخرجون بسعف النخيل من الكنيسة، و هو اليوم الذي ركب المسيحυ الحمار، و دخوله إلى بيت المقدس و الناس يرحبون به بسعف النخيل و يقولون <<مباركٌ الآتي باسم الرب>>/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٤.

(١٢٧) **عيد الفصح : و هو العيد الكبير عندهم و هو في نيسان، و هو يوم فطرهم بعد صيام أربعين يوماً، يزعمون أن المسيحυ قام بعد صلبه بثلاثة أيام و خلَّص آدم υ من الجحيم، و أقام في الأرض أربعين يوماً آخرها الخميس، وثمَّ صعد إلى السماء/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٤.

(١٢٨) **أحد العنصرة : يحتفل به النصارى بعد مرور خمسين يوماً من الفصح و يقولون أن الروح القدس حلَّت بالتلاميذ بألسنةٍ نارية/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٥.

(١٢٩) **عيد الميلاد :يحتفل به النصارى في ٢٥ كانون الأول و يقولون أن السيد المسيحυ ولد في بيت لحم، فيوقد النصارى المصابيح بالكنائس و يزيِّنونها/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٥.

(١٣٠) **عيد رأس السنة الميلادية :بعد ثمان أيام من الميلاد يكون الختان الذي ختن به المسيحυ، و يقع في اليوم الأول من كانون الثاني رأس السنة الميلادية/** ميخائيل عساف : المرجع السابق جـ١ ص٤٥١.

(١٣١) **عيد الغطاس : يقولون أن يحيى υ (يوحنَّا المعمدان) غسَّل عيسى υ بنهر الأردن، و أن عيسى υ خرج من الماء و اتصل به روح القدس على هيئة حمامة، و النصارى يغمسون أولادهم فيه على أنه يقع في شدَّة البرد/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٥.

(١٣٢) **عيد التجلي : يزعمون أن السيد المسيح υ تجلَّى لتلاميذه بعد أن رفع في هذا اليوم، و تمنَّوا عليه أن يحضر لهم إيلياءυ، و موسىυ، فأحضرهما لهم بمصلَّى بيت المقدس ثمَّ صعد إلى السماء و تركهم، و تعيد الكنيسة في السادس من شهر آب على جبل تابور((الشيخ))/** القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٧.

(١٣٣) **عيد الصليب : و هو من الأعياد المحدثة، و سببه ظهور الصليب المقدَّس على يد هيلانة أم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، لأنه عندما تنصر قسطنطين الأول خرجت أمه هيلانة إلى بلاد الشام فبنت الكنائس، و سارت إلى بيت المقدس و طلبت الخشبة التي وعمت النصارى أن المسيحυ صُلب عليها فحُملت إليها و فشَّتها بالذهب، و اتخذت ذلك عيداً و يصادف هذا العيد في**

الرابع عشر من شهر أيلول من كلِّ سنة، و لا تزال الكنيسة تعيِّد بهذا العيد بمظاهر الفرح و الابتهاج، و تمتاز بلاد الشام على غيرها بالاحتفاء بهذا العيد، و لا سيَّما جبل لبان و وادي النصارى و صيدنايا و معلولا/ القلقشندي :المصدر نفسه جـ٢ ص٤٥٧/ ميخائيل عساف : المرجع السابق جـ١ ص٥٨.

(١٣٤) لودولف فون سوخم : المصدر السابق جـ٣٩ ص٣٨٣–ص٣٨٤.

(١٣٥) عبد الرحمن بك سامي : المرجع السابق ص٨٦.

(١٣٧) ابن جبير : المصدر نفسه ص٢٦٩.

(١٣٨) عبد الرحمن بك سامي : المرجع نفسه ص٧٩،ص٨٠.

(١٣٩) عبد الرحمن بك سامي : المرجع نفسه ص٨٠.

(١٤٠) نعمان قساطلي : المرجع السابق ص٢١٨–ص٢٢١.

(١٤١) نعمان قساطلي : المرجع نفسه ص٢٢١.

(١٤٢) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٦٧–ص٢٦٨.

(١٤٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ص١٢٤.

(١٤٤) يوسف جميل نعيسة : مجتمع دمشق دار طلاس ط٢ دمشق ١٩٩٤ جـ٢ ص٧٠٩.

(١٤٥) : محمد كرد علي : المرجع السابق جـ٦ ص٢٨٨–ص٢٨٩.

(١٤٦) أبو البقاء البدري : نزهة الأنام في محسن الشام دار الرائد العربي ط١ بيروت ١٩٨٠ ص٢١٢–ص٢١٣.

(١٤٧) ابن جبير : المصدر السابق ص٢٤٨.

(١٤٨) يوسف جميل نعيسة : المرجع نفسه جـ١ ص١٢٠.

(١٤٩) السيد الباز العريني : المماليك دار النهضة العربية بيروت د.ت ص١٠٤.

(١٥٠) لودولف فون سوخم : المصدر السابق جـ٣٩ ص٣٨٤–ص٣٨٥.